أغرب ما رأيت

حبيب جاماتي

الكتاب: أغرب ما رأيت

الكاتب: حبيب جاماتي

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

جاماتي ، حبيب

أغرب ما رأيت / حبيب جاماتي.

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٥٠ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٢٠ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٣٤٢٦ / ٢٠١٩

أغرب ما رأيت



في ذهني ذكريات، وفي درج مكتبي مذكرات، وقد انتقيت لك، أيها القارئ العزيز، من هذه ومن تلك، حصاداً أقدمه هنا للتسلية والفائدة معاً. وسوف تجد في هذا الكتاب الصغير مجموعة منوعة الأشكال والألوان من المعلومات والطرائف أسميتها «أغرب ما رأيت»، وأرجو أن أكون بهذا قد هيأت لك الأسباب لتقضي ساعة أو بضع ساعات، في قراءة لا تدخل إلى نفسك الضجر!

حبيب جاماتي

مع تاجر رقيق!

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً..

«عمر بن الخطاب»

يخال للقارئ أن هذا العنوان إنما هو خيالي وهمي، لا ينطبق على حقيقة ولا يستند إلى واقع.. لكن الأمر بالعكس؛ فتجارة الرقيق لا تزال رائجة. وتجار الرقيق لا يزالون إلى اليوم يجوبون الأقطار والأمصار، يتاجرون باللحوم البشرية، ويبيعون للإنسان أخاه الإنسان فيصبح هذا عبداً لذاك- وقد خلق الله الاثنين حرين طليقين.

يظن الناس أن تجارة الرقيق كاسدة الآن، وأن الحرية الشخصية نعمة يتمتع بها الأفراد وأن الاستعباد إنما هو آفة تشكو منها الأمم فقط. لكن هذا الاعتقاد باطل، فلا يزال في العالم أفراد أرقاء كما لا يزال فيه شعوب مستعبدة.

شاءت الظروف والصدف أن أعرف في الحجاز- سنة ١٩١٨- رجلاً ممن اتخذوا الاتجار بالرقيق مهنة لهم، وإنها لمهنة تدر على أصحابها الأموال الطائلة، إذ أن الرجل قد جمع من مزاولتها ثروة كبيرة.

وشاءت الظروف والصدف أيضاً أن ألتقي ذلك التاجر في شوارع القاهرة، سنة ١٩٣٠، أي بعد لقائنا باثنتي عشرة سنة. ألفيته كما كان: قوي البنية، براق العينين، قاتم اللون، حسن الهندام، قوي الصوت، عصبي الحركة. وقد اجتمعت به ثلاث مرات دار فيها الحديث بيننا حول تجارة الرقيق، فأدلى إلي الرجل بمعلومات عجيبة!

ولكن لا بد لي من الإشارة أولا إلى أن الرجل اكتفى بالثروة التي جمعها، والتي يستثمرها في أعمال تجارية أخرى، بعد أن نقل أمواله إلى الهند واتخذها مقراً له؛ فخالد بن عبد العزيز كان في سنة ١٩٣٠ لا يختلف في شيء عن أولئك التجار الهنود الذين يصدرون إلى الشرق والغرب مصنوعات بلادهم. سألته إذا كان لا يشعر بشيء من توبيخ الضمير عندما يتذكر أنه جمع ثروته من تجارة الرقيق، فأجابني: «كلا: إنني مرتاح كل الارتياح، لأنني ما اعتقدت يوما أن مهنتي معيبة شائنة، بالرغم من الصيحات التي كانت ترسلها بعض الهيئات الرسمية، والمخابرات التي كانت تقوم بها الحكومات للقضاء على تجارتنا»

وعلمت منه أنه كان قبل الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ من المقربين إلى «إفرام باشا» تاجر الرقيق الأكبر الذي كان يمون قصور الأتراك بالعبيد والجواري، وأن إفرام باشا هو الذي رسم له خطط السير، وأنقده مبلغاً من المال لكي يتمكن من الاستقلال في العمل. ومنذ ذلك الوقت، اتسع نطاق تجارته وصار من الناس الذين يحسب لهم العظماء حساباً.

ويقدر خالد عدد العبيد الذين باعهم في جزيرة العرب والحبشة وزنجبار والمستعمرات البريطانية في إفريقيا، بسبعة آلاف من المساكين كما أنه يقدر عدد الجواري اللواتي باعهن في تلك الأقطار بثلاثة آلاف!.. أي أن عشرة آلاف من الأرواح البشرية رسفت في أغلال الرق والعبودية بسببه وعلى يده، وهو رغم ذلك مرتاح الضمير هادئ البال!

وجعل خالد يفضى إلي بتفصيلات مدهشة عن الصفقات الرابحة التي قام بها في بعض المستعمرات الفرنسية، ومما قال:

– الفرنسيون يحاربون الرقيق، لكن استخدامهم السود في مستعمراتهم لا يختلف في شيء عن الرق. فإن أولئك الزنوج يساقون أفواجاً إلى الغابات والمحاجر، حيث يقضون نحبهم الواحد بعد الآخر، لا يعود منهم إلى وطنه أحد. وقد حدث مرة أن التقيت بقافلة من أولئك السود، يسوقها الجند إلى إحدى الغابات في مستعمرة الكونجو، فعرض على الضابط الذي كان يقود الجند أن أبيعه العبيد الذين كانوا معي، فرضيت وأنقذني الرجل الثمن، لكنا كتبنا في العقد الذي وقعنا عليه أن المبلغ المدفوع هو «أجر أولئك العبيد لمدة سنة!»، وهكذا تساعد الحكومات تجارة الرقيق في إفريقيا بدل أن تقضي عليها كما تدعى. وأؤكد لك أن معظم أولئك الذين يقومون برحلات للصيد والقنص في داخل الأقطار الإفريقية إنما هم من تجار الرقيق الذين يتسترون وراء هواية الصيد وتجار العاج.

– كيف كنتم تستولون على العبيد لبيعهم؟

– كنا نهاجم القرى في داخل إفريقيا، أو نتربص لصبيان السود وبناتهم وهم يلعبون على مقربة من المساكن، فينقض عليهم رجالنا ويسوقون بهم ويهربون بهم مسرعين. أي أننا كنا نصطاد العبيد كما نصطاد الحيوانات والطيور، ونذهب بهم إلى أماكن معروفة، حيث نجد العمال والسماسرة في الانتظار، وكنا دائما نبيع العبد في مكان يبعد كثيراً عن الجهة التي اقتنصناه فيها، بينما نبيع في تلك الجهة عبيدا نجيء بهم من جهة أخرى. غير أن هذه الطريقة للحصول على الرقيق شاقة محفوفة بالمخاطر، وقد كنا نعمد أيضاً إلى سواها، فنبتاع العبيد من زعماء القبائل الإفريقية أنفسهم، لأن الرق شائع عندهم، وهم يتخذونه وسيلة من وسائل الرزق. لكننا كنا نفعل ذلك خفية، دون أن نترك الحكومات المحلية تعلم من أمرنا شيئاً. ولا أحدثك عن الصعوبات التي كانت تعترضنا، والأخطار التي كنا نستهدف لها في طريق عودتنا إلى السواحل، إذا كنا عازمين على شحن العبيد إلى الخارج.

– وهل كنتم تجدون السفن التي يرضى أصحابها بشحن الرقيق؟

– نعم. وهي سفن خاصة، تجوب البحار بحجة أن أصحابها من كبار الصيادين، لكنهم في الحقيقة تجار رقيق مثلنا. فكنا نشحن الزنوج الذين نقتنصهم من إفريقيا إلى الجهات التي نريدها، وكانت السفينة تسلك طريقاً بعيداً عن طرق الملاحة المعروفة، كيلا تلتقي بسفن أخرى في طريقها

فينكشف أمرها. وأؤكد لك أنه لا يزال يوجد اليوم كثير من تلك السفن التي تجوب البحر الأحمر والمحيط الهندي والمحيط الأطلسي، تنقل العبيد من قارة إلى قارة، ومن ساحل إلى ساحل، دون أن يفطن إليها أحد.

– كم كان يكلفك العبد الواحد؟

– لا أستطيع أن أحدد لك الثمن الذي كنت أدفعه إذ أنه كان يختلف كثيرا باختلاف البلاد وصنف «البضاعة» فقد اشتريت أحياناً العبد بجنيه واحد أو أقل، وبعته بأكثر من عشرين أو ثلاثين. كما أنني أحياناً مثل هذا المبلغ ثمن عبد بعته بأضعاف ثمنه الأصلي. أما في الطريق، فإن النفقات كانت تختلف أيضاً باختلاف الجهات التي نطرقها ونمر فيها، والسفن التي تنقل لنا العبيد من ناحية إلى أخرى.

– وماذا كنتم تصنعون بالعبيد الذين يصابون بمرض ما في الطريق؟

– نقلهم إذا كنا في البر، نلقيهم في الماء إذا كنا في عرض البحر.

– أيمكنك أن تذكر لي الجهات التي لا يزال الرقيق شائعاً فيها؟

– نعم: الحجاز واليمن والحبشة وبعض الأقطار العربية الأخرى، وأواسط إفريقيا، والمستعمرات الفرنسية والإنجليزية، وجزر المحيط الهندي، وقد بلغني أخيراً أن الناس يتاجرون بالرقيق إلى الآن في بعض البلدان الأمريكية الجنوبية.

– ألا تعتقد أن هذه التجارة سيقضى عليها قضاءً تاماً؟

– كلا، مادامت الحكومات الأوروبية لا تحاربها إلا في الظاهر فقط، وأعيد عليك القول أن تلك الحكومات تأتي من الأعمال في مستعمراتها ما يعد تشجيعاً لتجارة الرقيق وترويجها لها.

هذا بعض ما قاله لي خالد بن عبد العزيز، تاجر الرقيق بالأمس، فهو يتهم صراحة بعض الحكومات الأوروبية بأنها تتظاهر بمحاربة الرقيق بينما تجاريه في الواقع. ومما يثبت قول الرجل، ويدعم تصريحاته، أن صحافياً فرنسياً قد عاد أخيراً من رحلة قام بها في الأقطار الإفريقية الوسطى، والمستعمرات الفرنسية الآسيوية، وكتب في جريدة «بتي باريزيان» سلسلة مقالات أتى فيها على وصف ما يعانيه سكان تلك البلدان من جور وعسف واضطهاد وعذاب، وقال أن استخدام أولئك المساكين في الأعمال العامة، لا يقل عن الرق بأفظع مظاهره. وقد اهتمت الحكومة الفرنسية بأقوال ذلك الصحافي اهتماماً عظيماً، وطلب بعض النواب القيام بتحقيق دقيق في المستعمرات التي أشار إليها.

وألفت نظر القارئ إلى أن هذا الحديث جرى لي مع تاجر الرقيق في سنة ١٩٣٠ بالقاهرة. وإذا كان بعض ما جاء فيه لا يطابق الواقع الآن– أي يوم نشر هذه الذكريات– فيكون الوقت قد خدم العبيد ضد النخاسين!

رأيت معجزة الحبل في الهند!

هل رأيت في حياتك طفلاً يتسلق حبلاً منتصباً في الهواء كأنه شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء؟!.. هذا ما شاهده الكاتب. فهل لديك لذلك تفسير معقول؟..

في الهند طائفة من الزهاد، يقضون العمر في العبادة والصلاة، والانصراف إلى الرياضة الفكرية والروحية. وقد جرت العادة أن نسمي الواحد منهم في أحاديثنا «الفقير»، وهو اسم مأخوذ من الإفرنجية «فكير» ولكننا نلبس هذه التسمية معناها المشتق من «الفقر» لأن أولئك الزهاد يبدون في مظهر الفاقة والعوز.

ولكن رجلاً هندياً فاضلاً، وهو من علماء المسلمين هناك ويدعى السيد مُحَمَّد قاهر. قال لي مرة أن التسمية الأوربية هي الصحيحة، وأن اسم الزاهد الهندي هو «فكير»– بتشديد الكاف– لأنه مشتق من «الفكر».

وعدد أولئك «الفقراء» أو «الفكيرين» في الهند لا يعد ولا يحصى، وجميعهم على ما قيل لي من الهندوكيين. وقد التقيت بأكثر من عشرين أولئك الزهاد الهندوكيين. وحدثتهم، وشاهدت معجزاتهم، وحاولت أن أناقشهم، فكانوا يتجنبون الرد على أسئلتي!

أما الأعمال المدهشة التي كانوا يأتونها، فإنها متتابعة متماسكة، كأن حياتهم كلها سلسلة من المعجزات.. فقد رأيت واحداً منهم واقفاً على رأسه، وقدماه إلى أعلى، وذراعاه مبسوطتان، فكان شكله كالصليب المقلوب!.. وأكد لي الناس الذين كانوا ملتفين حول هذا الرجل في ضواحي بمباي، إنه قائم على تلك الحالة منذ ستة أعوام، وأن واحداً منهم لم يره جالساً أو واقفاً على قدميه!.. وهو يأكل ويشرب إذا قدم له المحسنون طعاماً وشراباً، ويظل صائماً عن الأكل والشرب إذا لم يضع له أحد اللقمة في فمه ويصب له الماء فيه!

***

ورأيت زاهداً واقفاً على قدم واحدة، وقد طوى قدمه الأخرى، وربطها بحبل إلى وسطه. ورفع يديه إلى أعلى، وهو واقف على هذا الوضع منذ ١٦ سنة!.. لم يتحرك خلالها، ولم ينم، ولم يجلس. والمحسنون هم الذين ينزعون عنه الخرق البالية التي تغطي جسمه ويبدلون بها غيرها.

***

ورأيت على شاطئ البحر، في مكان قريب من «بوابة الهند» زاهداً ترك أظافر يديه ورجليه تنمو حتى غرست في جلده ولحمه، وبلغ طولها نحو نصف متر!.. ورأيت واحداً من أولئك الزهاد يفتح كفيه ويضع في كل منهما جمرة من النار، ويتركها حتى تنطفئ، فلا يبقى غير الرماد، ولكنه لا يصاب بأذى، ولا تؤثر النار في جلده!

ولم يتيسر لي أن أرى واحداً منهم يدفن نفسه حياً، ولكن أناساً ممن عرفتهم هناك، أكدوا لي أن بعض الزهاد يظلون في القبر ثلاثة أيام، ثم ينهضون منه أحياء يرزقون!

***

ولست في حاجة إلى سرد أعمال أخرى من أعمال الفقراء أو الفكيرين، فالقارئ ولا شك قد طالع عنهم الشيء الكثير.

***

ولننتقل الآن إلى معجزة المعجزات، وهي التي يسمونها «معجزة الحبل»، وقد رأيت بعيني في بمباي زاهداً من الهنود يقوم بها أمام جمهور من الناس لا يقل عددهم عن ستين أو سبعين شخصاً، بينهم بعض الأوربيين. كان ذلك في مربع من الأرض تكتنفه الأشجار من ناحيتين، وتصل إليه طريق وعرة من ناحية ثالثة، ويقوم من ناحيته الرابعة بناء متهدم قيل أن الزاهد يتخذه مسكناً له، ويعيش فيه مع طائفة من العمال الهندوكيين.

فرش الزاهد على الأرض جلباباً قذراً، ووضع على طرف الجلباب وعاءً من الصفيح فيه بخور يحترق، وألقى على البخور حفنة من أعشاب جافة تصاعد منها دخان عبق برائحة عطرة تشبه رائحة المسك، وكان ذلك بعد غروب الشمس مباشرة.. وأشعل الرجل عند باب المنزل كومة من الأخشاب والأغصان، فاندلعت نيرانها وتصاعد لهبها فعم المكان ضوء

مائل إلى الحمرة.. ثم فتح الزاهد كيساً كان يحمله صبي في العاشرة من العمر وأخذ منه حبلاً ضخماً من الجبال التي يستعملها البحارة في مراكبهم، ويبلغ طوله نحو خمسة أمتار.. وتربع الرجل على الأرض وجعل يستنشق رائحة البخور ويتمتم بكلمات لم نفهم منها شيئاً ثم هب ناهضاً دفعة واحدة، وأمسك طرف الحبل بيده اليمنى إلى أعلى، فانتصب الحبل واقفاً كأنه عمود من الخشب!!

وطلبنا أن نقترب من الحبل ونمسه بأيدينا فلم يمانع الزاهد في ذلك، وسمح لخمسة منا بأن يمسوا الحبل.. اثنين من الأوربيين، واثنين من الهنود، وأنا.. فلمسنا الحبل، وحاولت أنا أن أجذبه إلي فلم أستطع، وخيل إلي أنني أشد على جذع شجرة!..

ونظر الزاهد إلى أربعة أطفال كانوا بين الحضور، وقال لهم بلغة البلاد. «من منكم يريد أن يصعد إلى المساء؟» فتقدم واحد من الأطفال في نحو الثانية عشرة وقال: «أنا أصعد!».

ولست أدري إذا كان هناك اتفاق سابق بين الرجل والطفل الذي أراد أن يصعد إلى السماء، ولكن الذي أعرفه أن الطفل اقترب من الحبل، وراح يتسلقه كأنه شجرة ثابتة إلى أن اختفى عن الأنظار!! نعم اختفى الطفل عن أنظارنا جميعاً.. وصاح الرجل من أسفل الحبل صيحة لا أعرف معناها، وتناول من الكيس خنجراً كبيراً، أقرب إلى السيف منه إلى الخنجر العادي، ورماه بيمينه إلى أعلى فاختفى الخنجر.. وتساقط على الأرض

سيل من الدماء.. وظللنا واقفين لاهثين نحدق البصر في الحبل، ونحاول أن نرى في طرفه أثراً للصبي أو للخنجر، فلم نر شيئاً غير طرف الحبل يتمايل في الفضاء!.. ونظرت في الساعة فاتضح لي أن عشرة دقائق قد مرت منذ انتصاب الحبل أمامنا في الجو.. ومرت دقائق أخرى شعرت فيها بدوار ينتابني، ولست أدري إذا كان الدوار من ذلك المنظر الرهيب، أو من رائحة البخور ودخان الأعشاب..

وصاح الزاهد بالصبي أن ينزل.. فإذا الصبي يبدو لأنظارنا في طرف الحبل ويهبط على الأرض سليماً معافى.. ثم يسقط الخنجر بعد نزول الصبي عن الحبل.. نعم بعد نزوله لا قبله أي أن الصبي لم يلق الخنجر بنفسه، بل أن الخنجر سقط وحده وبعد هبوط الصبي!

هذه هي معجزة الحبل كما رأيتها بعيني! وليس يهمني أن يكون الطفل قد جرح، وأن يكون دمه هو الذي هطل على الأرض، أو أن تسمى معجزة الزاهد خدعة أو شعوذة، أو غير ذلك من الأسماء. وإنما الذي يهمني إنني رأيت «المعجزة» ولمست الحبل!.. وليفسر العلماء هذه «اللعبة» بعدى ذلك، كما يشاءون!

جوزني بنيتك يا راجل!

سيناء جزء من مصر، ولكن لسكانها تقاليدهم وعاداتهم التي تحترمها الحكومة المصرية وتقرهم عليها.. يقطن سيناء سكان جميعهم من العرب المسلمين. والمدن أو القرى فيها قليلة. ومعظم سكانها من البدو الرجل، الذين حافظوا محافظة شديدة على عادات العرب وتقاليدهم وشمائلهم. وإليك بعض تلك العادات والتقاليد:

قلنا أن عرب سيناء مسلمون، وهم فوق ذلك بحكم الجغرافية والقانون والإدارة مصريون. ولكن لهم ميزة يمتازون بها عن بقية سكان القطر، وهي أنهم في شئون الزواج والطلاق والتقاضي وغير ذلك يخضعون لأنظمتهم الخاصة ولما توارثوه منها عن آبائهم. فعندهم القصلة– وعندهم البشع– وعندهم الغرة– وكلها كلمات قد يجهلها القارئ، وهانحن نتقدم إليه بتفسيرها.

من العار عند عرب سيناء أن لا يتزوج الفتى عندما يبلغ سن المراهقة، كما أنه من العار أن تبقى الفتاة في دار أبيها – أو بالحري في خيمته – بدون زواج بعد أن تبلغ تلك السن. فإذا رغب شاب في اتخاذ إحدى فتيات القبيلة زوجة له، قصد إلى أبيها معه «القصلة».

والقصلة عود أخضر أو عصا قصيرة، حسب الظروف، يتقدم بها طالب الزواج إلى والد الفتاة قائلا: «جوزني بنيتك يا راجل!» – أو يا فلان منادياً إياه باسمه – فإذا وافق الوالد على طلب الشاب، أخذ القصلة منه، وهزها بيده. ثم أعادها إليه قائلاً: «هي قصلة بنيتي!». أو قائلاً أيضاً: «جوزتها لك يا بني!»

وعند بعض العشائر، يتقدم الشاب بطلبه إلى والد الفتاة وليس بيده شيء. فإذا أجابه الرجل إلى طلبه، تناول الوالد نفسه «قصلة» من الأرض وأعطاها للشاب قائلاً: "هي قصلة بنيتي!" وقد تكون الفتاة حاضرة أولاً تكون، فإذا كانت حاضرة في المجلس، أشار إليها الوالد قائلاً للشاب: "خذها..!" ويحق له أن يأخذها من يدها ويخرج في الحال وقد أصبحت له حليلة. وإذا لم تكن حاضرة في المجلس، يحق للشاب أن يبحث عنها لساعته، حتى إذا ما وقع نظره عليها، أخذها بين ذارعيه وابتعد. ويذهب العروسان في معظم الأحيان إلى خيمة العريس الذي يجب أن يترك خيمة أهله يوم زواجه، أو أن يقسم تلك الخيمة إلى قسمين، وذلك بأن يضع في وسطها ستاراً من ربر الإبل. ويدفع الشاب مهراً نقدياً أو عدداً ما من الجمال أو الخيول، والمهر يصبح ملكاً للأب يتصرف به كما يشاء. وعندهم أيضاً الاختطاف أو النشل ويقع في حالة امتناع الأب عن ابطاء ابنته لطالبها عندما يتقدم إليه بالقصلة.

والبشعة طاسة من النحاس تحمى في النار حتى تصبح حمراء وحينذاك يسأل المبشع المتهم: "أمذنب أنت؟"، فإذا أجاب بالنفي، أمسك به اثنان

وقرب المبشع الطاسة المحمية من وجهه، ورفعها أمام عينيه، وطلب إليه أن يحدق النظر في النار. وفي هذا ما فيه من عذاب إذ أن الوهج يحرق الأحداق ويعمى البصر. وإذا جاز المتهم هذا الامتحان الأول وظل منكر التهمة، قال له المبشع: "الحس!" وعليه حينذاك أن يلحس الطاسة المحمية بلسانه. فإذا احترق لسانه فهو مذنب. وإذا لم يحترق لسانه– وهذا نادر– فهو بريء. والمحروق اللسان يسمى عندهم «المعطوب» وأهل القبيلة يشيرون إليه بالأصابع. أما البريء الذي لا تؤثر النار في لسانه، فإنه يحوز على احترام الجميع ويصبح بين قومه ذا منزلة كمنزلة الأولياء.

والغرة نوع من الأحكام التي تطبق في حالة القتل، فالقاتل الذي يرتكب جرمه علنا، يجب عليه أن يهرب بعيداً عن القبيلة وأن يتوارى عن الأنظار. وعلى أهله أن يدفعوا الدية وهي عدد معين من الجمال، كما أن عليهم أيضاً الرضوخ لتقاليد «الغرة» أما الغرة، فهي أن تقدم أسرة القاتل إلى أسرة القتيل إحدى بناتها العذارى، فتصبح الفتاة ملكاً للأسرة الثانية إلى أن تلد لها طفلاً ذكراً يحل محل القتيل في الحي. ومعنى «الغرة» في عرفهم أن الأسرة الفلانية قتلت لأسرة أخرى رجلاً فأصبح عليهم أن تعطيها رجلاً آخر بدلاً منه. وبعد أن تلد الفتاة ذلك «البدل» تعاد إلى أهلها، ويستطيع القاتل أن يعود من ناحيته إلى مضارب القبيلة دون أن يخشى انتقاماً من أحد، مادام قد دفع الدية جمالاً، والغرة مولوداً ذكراً.

ولعرب سيناء خصال حميدة كثيرة، منها إكرام الضيف والذود عنه والمحافظة على الشرف والدفاع عن العرض والإسراع إلى نجدة الصديق.

فإنهم فقراء بالنسبة إلى غيرهم من عرب مصر والشام، ولكنهم عندما ينزل في مضاربهم ضيف يبذلون ما في وسعهم لإكرامه. وإذا لم يكن عند المضيف غير رأس من الماعز أو ناقة واحدة يعيش من لبنها، لذبح الماعز أو الناقة، وآثر الجوع في غده، على عدم إكرام الضيف في يومه. وإذا كان الضيف هارباً من وجه عدو، وقف مضيفه في وجه ذلك العدو وحمى الضيف الذي استجار به ولو ضحى في هذا السبيل بحياته.

وتبلغ محافظتهم على شرف نسائهم وسمعتهن، إنهم يقاضون الرجل الذي يروج إشاعة سوء عن امرأة من نساء الحي، فإما أن يثبت أن الإشاعة صادقة، وحينذاك تعاقب المرأة أشد عقاب، وإما أن يعجز عن الإثبات فيحكم عليه بأن يطوف على القبيلة وعلى القبائل المجاورة، منادياً بأنه كان في تحامله على المرأة كاذباً وأنها شريفة ابنة قوم أشراف!

ويتكلم سكان البادية في سيناء لغة هي مزيج من اللهجات المصرية والشامية والبدوية. وهم أقل من رجال القبائل الضاربة في شرق الأردن وبادية الشام تهجماً بعضهم على بعض. فأعمال الغزو عندهم نادرة. وحياتهم هادئة. والمخاصمات بين قبائلهم وأفرادهم قليلة.

وفي سيناء أديرة مسيحية قديمة، أهمها دير طور سيناء، حيث يعيش ٢٥ راهباً في حماية رجال القبائل، وعلى أتم وفاق معهم.

حمدي المنجم

طلب مني المنجم أن أنشر قصة فنشرتها، ولا أدري أهو باق على قيد الحياة، فيقرأ القصة التي رواها لي فيضحك!.

عرفت حمدي في المدرسة، وظلت تربطنا منذ ذلك العهد صداقة وثيقة العرى، وكنا نلتقي في الأسبوع ثلاث مرات أو أكثر، ولم يحدث قط أن بدرت من أحدنا بادرة خيانة لتلك الصداقة التي حافظنا عليها، ولا نزال نحافظ عليها إلى الآن.

وفي سنة ١٩١٨، عندما وضعت الحرب العظمى أوزارها، عدت إلى مصر– وكنت قد رحلت عنها مدة من الزمن– أسرعت إلى السؤال عن صديقي حمدي، فقيل لي أنه سافر إلى أوربا في سنة ١٩١٧، وأنه يقيم في باريس. حصلت على عنوانه، وكتبت إليه، وما لبثت أن تلقيت منه رداً على رسالتي، واستمرت المكاتبة بيننا عشرة سنوات كاملة، لم ينقطع فيها أحدنا عن إطلاع صديقه على أعماله وأحواله.

وفي سنة ١٩٢٨، تلقيت من حمدي رسالة يقول لي فيها أنه سيقوم برحلة طويلة في أنحاء أوربا، وأنه لن يكتب إلي في خلالها ويعدني بالمجئ إلى مصر عن طريق البر، مارا بتركيا وسوريا ولبنان وفلسطين. ومضت الشهور،

ومرت السنة الأولى، فالثانية فالثالثة، دون أن أعلم عن صديقي شيئاً، وقطعت الأمل من رؤيته، ظناً مني أنه قد لقي حتفه في تلك الرحلة المشئومة.

***

كنت مخطئاً في ظني، مغالياً في تشاؤمي؛ فقد التقيت بحمدي صدفة على أثر عودته إلى مصر سالماً، ولا أحدثكم عن الفرح الذي بعثه في نفسي ذلك اللقاء بعد الفراق الطويل، فإنكم تعملون مثلي أن الصداقة ابنة عم الغرام، وأن الاجتماع بصديق وفي عزيز يشبه إلى حد ما لقاء معشوقة محبوبة! وحمدي يعد الآن من كبار الأغنياء، فهو يملك ثروة طائلة مودعة في المصارف، وله في أوربا القصور والعقارات. وهذا كله لا يمنعه من المحافظة على صداقتنا، ولم يؤثر قط في علاقاتنا، بالرغم من أن صديقي حمدي يعرف أنني لا أملك عقاراً وليس لي في المصارف حسابات!

وقد قص حمدي علي قصته بالتفصيل، وأذن لي بأن أنقلها إليكم مع إخفاء اسمه الحقيقي، ولذلك فإني أسميه «حمدي» لتضليلكم، فلا تبحثوا عن شخصيته لأنكم لن تصلوا إلى معرفتها.

قال حمدي: حدث في سنة ١٩١٩ أن كنت أطوف باريس باحثاً عن شخص كنت في حاجة إليه، فالتقيت به، وأطلعته على موضوع زيارتي، وما مضى على ذلك اليوم شهر واحد حتى تمت الصفقة التي عرضتها على

ذلك الشخص، وكللت بالنجاح التام، فأصبحت بين يوم وآخر أملك عشرة آلاف من الجنيهات الإنجليزية!

ساعدني الحظ إذن أكثر مما كنت آمل وانتظر، والمال يحمل صاحبه على الثقة بنفسه، وهو في آن واحد يبعث في النفس نشاطاً غريبا. فجعلت أبحث عن صفقات رابحة أقدم عليها، وأخاطر بالأموال سعياً وراء الأموال، حتى أصبحت في سنة ١٩٢١ على رأس ثروة لا تقل عن عشرين ألفاً من الجنيهات! وخطر لي ذات يوم خاطر غريب، وهو أن أذهب إلى امرأة منجمة تقرأ في صفحة الغيب وتتنبأ بالمستقبل، فذهبت إليها، ومما قالته لي:

– إنك أيها الفتى لن تعيش أكثر من سنتين! فستموت فجأة في عام ١٩٢٣ ولن تستطيع دفع الأجل المحتوم عن نفسك مهما صنعت في سبيل ذلك!

خرجت من منزل المرأة مرتبك البال مضطرب الفكر!

سنتان فقط؟

وهذه الثروة جمعتها؟ لمن أتركها؟ ليس لي أهل ولا امرأة ولا أولاد!

رددت حينذاك في نفسي القول العامي المأثور في مصر: «ستين سنة سبعين يوم!» وعزمت على التمتع بالحياة في السنتين الباقيتين لي من العمر، وقررت أن لا أحرم نفسي من شيء وأن أنفق الثروة التي جمعتها في

اللهو والملذات! وانطلقت في هذا السبيل انطلاق الخيول في جلبة السباق، وجعلت أنثر المال يميناً ويساراً، ولم أترك نوعاً من أنواع المرح والسرور إلا وذقت لذته وارتشفت كأسه.. قد يتهمني البعض بالجنون، أو على الأقل بعدم الإدراك والتهور، ليكن ذلك، فإنني أقص عليك الحقيقة والواقع دون أن أبرئ نفسي.

ومرت السنة الأولى وهبطت ثروتي إلى عشرة آلاف جنيه! ومرت السنة الثانية، فأصبحت خالي الجيب! ولكني لم أمت! ما العمل إذن وقد حكم علي أن أعيش أكثر مما كان يجب أن أعيش؟ أأعود إلى الاستخدام؟ أأنزل من جديد إلى ميدان التجارة والنفس يائسة مما حل بها؟

تذكرت المثل القائل: «يجب أن يكون الإنسان في الحياة فيلسوفاً!» وقد عملت بهذا المثل!

أضعت ثروتي بسبب قراءة المستقبل، فيجب إذن أن أصبح منجماً يستطلع الغيب، ويفسر خطوط اليد، ويسطو على جيوب الأغنياء والسذج من الناس، كما سطت تلك المنجمة على جيبي وهدمت صرح حياتي!

عمدت إذن إلى اتخاذ اسم مستعار، بحثت عنه كثيراً في معاجم اللغة الهندية، وأطلقت على نفسي لقب «أمير العرافين» وأعلنت عن استعدادي للتنبؤ بما يكنه الغد ويحمله إلى الناس، ونشرت بياناً كاذباً عن تنبؤاتي السابقة للعظماء والكبراء، وادعيت إنها تحققت جميعها، وطبعت صوراً

مزورة لشهادات قلت إنني نلتها من الجمعيات الروحانية، إلى غير ما هنالك من أنواع الدجل والضحك على العقول!

ولست في حاجة إلى ذكر التفاصيل لأنك تعرف الكثير يا صديقي عن أولئك المنجمين الذين يهبطون على البلد ثم يرحلون عنه بأموال البسطاء، دون أن تبدو من الحكومة حركة واحدة لمنعهم أو على الأقل لمراقبتهم! وقد أخفيت عنك الحقيقة في رسائلي لأنني كنت أريد أن أطلعك عليها بنفسي. بقيت أستطلع الغيب وأتنبأ بالمستقبل بضع سنوات جمعت في خلالها ثروة لا تعد ثروتي السابقة بالنسبة إليها شيئاً يذكر. ثم أعلنت في صحف أوربا أنني راحل عنها، وعائد إلى الهند للاشتراك في مؤتمر سري يعقده «الفقراء» أو «الفكيرون» كما يقول البعض، وكتبت إليك قائلاً: إنني أغادر باريس في رحلة طويلة، وبعد أن طفت أنحاء أوربا، عدت الآن إلى مصر، وقد هجرت «مهنتي» نهائياً!..

هذا ما قصه على حمدي، وقد ضحك كثيراً، ثم بسطت له كفي قائلاً:

– اقرأ ما تراه في هذا الكف وتنبأ لي بالمستقبل!

فأجابني بعد أن رنت ضحكته في المكان:

– أتريد أن يحدث لك ما حدث لي؟ لا تصدق شيئاً مما يدعيه الدجالون المنافقون، وانشر قصتي على الناس لعلهم يفقهون، ويحذرون!

مدينة العراة

هل العري مظهر من مظاهر الإباحية التي تفشت في عصرنا هذا؟ أم هو رياضة، والعراة قوم شرفاء كما يدعون؟

كانت السيارة تتسلق بنا سفوح الجبال فتنساب انسياب الحية على الطريق المعبد الكثير الأكواع والمنعزجات، بين الأشجار الوارقة والرياحين العطرة في تلك البقعة من ضواحي باريس، المعروفة بوديان «شفروز» والتي يقصدها الناس من كل فج وصوب، المتمتع بهوائها ومناظرها ومائها. وكان سائق السيارة ينبئني بأسماء الأماكن التي تمر بها، وما تمتاز به كل بلدة وكل غابة، فكان مما قاله ونحن نجتاز حقلاً قامت على أحد أطرافه مئات من أشجار الحور والسنديان والصنوبر: "خلف هذه الغابة يوجد مخيم العراة!"

فأمسكت بيده صائحاً:

– قف إذن!.. إنها لفرصة لن تسنح لي مرة ثانية في العمر! وعليك الآن أن تتوجه بنا صوب العراة ومخيمهم!

تصوروا: مخيم للعراة تقودني إليه الصدف! فكيف لا أزوره، وأمتع النظر، وأدون موضوعاً لمقال. وبعد دقائق، كنا على مقربة من حدود

المخيم، أو المستعمرة إذا شئتم، وإذا بشخصين يقتربان منا قادمين من خلف الأشجار، يشيران إلينا بالوقوف. هما رجل وسيدة

– إلى أين أنتم ذاهبون؟

– أنا صحافي مصري.. علمت بوجود مخيمكم هذا فجئت لزيارته.

– لكن زيارة المخيم يا سيدي ممنوعة!

وفجأة خطر لي خاطر:

– تقولين أن الزيارة ممنوعة؟ ومن حضرتك؟ أراك ترتدين القميص والشورت، ورفيقك أيضاً.. فما شأنكما وشأن العراة؟

وهنا بدأ الشرح، فقالت السيدة:

– لا يسمح لنا أن نمارس العرى إلا خلف هذه الأشجار التي تراها، ووراء الحاجز الخشبي الذي بالمخيم. أما في الخارج، فإننا نعرض أنفسنا للعقاب إذا نزعنا ثيابنا..

وأشفقت السيدة على الصحافي المصري الذي تجشم المتاعب وقطع الأرض والبحار والأجواء وتكبد النفقات الباهظة في سبيل زيارة المخيم، فقالت:

– نخالف القاعدة اليوم من أجلك. تفضل!

فتفضلت. واجتزنا خط الأشجار، وإذا بنا في حقل فسيح يحوطه سور آخر من الخشب، وداخل السور يمرح العراة– والعاريات! ولكن صعوبات أخرى كانت تنتظرني: فإن دخول المخيم وراء السور أصعب من دخول الجنة.. وعلى فكرة: إن هؤلاء العراة يسمون مخيمهم «الجنة» باعتبار أن آدم وحواء كانا يعيشان في الفردوس كما يعيشون هم في حفلهم، أي «يا رب كما خلقتني!»

وفي داخل الجنة لا يرتدي الرجال والنساء غير ما يسمونه «سليب» أي قطعة من القماش ملفوفة حول وسطهم، أو بعبارة أخرى «مايوه» كالذي يستعمله الناس على شاطئ البحر وقت الاستحمام والفرق بين العراة وبين المستحمين على شاطئ البحر بسيط جداً! فالعراة لا يغطون صدورهم، والنساء يبرزن نهودهن بخلاف ما يفعلن على «البلاج» وعلى هذا يكون وصف أولئك الرجال والنساء بأنهم «عراة» غير مطابق للواقع مطابقة تامة. فالعراة ليسوا عراة بالمعنى المقصود تماماً من هذه الكلمة، كما قد يتبادر إلى الذهن وشرحت لي محدثتي – وهي بارعة الجمال – ما يجوز وما لا يجوز، فقالت ما ملخصه.

–أردنا أن نعيش هنا عراة تماماً فمنعتنا الحكومة، ولا يسمح لنا إلا بما ترى؟ وإذا نزعنا هذا «السليب» فإن عملنا يعد اعتداء على الآداب. والبوليس يراقب مخيمنا ويمنعنا من الخروج منه إلا إذا ارتدينا ثيابا مثل الناس، ونحن نجئ هنا لقضاء بضعة أيام ثم نعود إلى أعمالنا، ونظامنا يشبه

نظام الأندية الرياضية.. وقد ارتديت أنا ورفيقي القميص والشورت عندما خرجنا، وها نحن نزعمها الآن.

ونزعت السيدة قميصها و«شورتها» فبدت عارية من الرأس إلى القدمين، وعلى وسطها «سليب» لا يزيد حجمه عن المنديل الصغير! وأحاط بنا جماعة من العراة جاءوا من أطراف المستعمرة، التي ليس فيها غير بعض خيام ومقاعد. وقلت لواحد منهم:

– إنكم تثيرون حول هذا النوع من الرياضة ضجة كبيرة، مع أنني رأيت في مطاعم باريس ومقاهيها وملاهيها، نساء يرقصن عاريات، وليس على أجسامهن غير «ورقة تين» مثل أمنا حواء. ورأيت في رابعة النهار بائعات في بعض الأماكن يطفن بين الزبائن والجزء الأعلى من أجسامهن عار من كل ثوب فما الداعي للمجيء إلى هنا إذا كنتم تريدون أن تعيشوا عراة؟ ألا يمكنكم أن تمارسوا هذه الرياضة في منازلكم، وعلى سطوحها، وفي حدائقها؟

فنظرت إلي إحدى العاريات نظرة تنم عن الشفقة على هذا الصحافي الذي لم يفهم بعد، ما في العرى من روعة وسحر وجمال. قالت:

– إننا نعبد الشمس يا سيدي! الشمس التي لولاها لما كانت الحياة تدب في هذا العالم! الشمس التي تسبغ على الكائنات جميع أنواع القوة والحسن! الشمس التي نعبدها كما كان قدماء المصريين يعبدونها!

فطبطبت على كتف السيدة، وكادت الدموع تطفر من عيني لشدة التأثر! وكيف لا أتأثر وهذه الحسناء العارية تستشهد بقدماء المصريين وتذكرني بآتون وآمون ورع!.

– معذرة يا سيدتي! كنت أظن أن العراة ينصرفون إلى ممارسة رياضتهم المحبوبة مدفوعين بعامل آخر، وبغريزة حيوانية في نظري

لكنها قاطعتني:

– لا.. لا يا سيدي! هذا هو موضع الخطأ والخطل! ونحن مظلمون!

وعلمت من الجماعة أن على ساحل فرنسا الجنوبي، جزيرة صغيرة تدعى جزيرة الشرق، فيها مستعمرة للعراة ينعم فيها أعضاء الجمعية بحرية أوسع من التي ينعم بها العراة في مخيماتهم في منطقة باريس وغيرها، وأنه يقيم في تلك الجزيرة طبيبان أخوان هما مؤسسا رياضة العرى في فرنسا. ومعظم هواة هذه الرياضة الغريبة يسافرون من وقت إلى آخر للإقامة أياما أو أسابيع في جزيرتهم وهي في نظرهم الفردوس. سألت السيدة:

– وهل تعيشون في الجزيرة عراة تماماً تماماً تماماً؟

فضحكت، ثم نظرت إلي نظرة لا تختلف في معناها عن الأولى، وقالت:

– إنك تفكر مثل غيرك، ولكني أجيبك على سؤالك فأقول: لا. لا نعيش هناك عراة تماماً تماماً تماماً كما تقول، بل نلبس ما نسميه «البدلة الرسمية» وهي عبارة عن «سليب» كهذا الذي البسه أنا. لأن البوليس يراقبنا

هناك أيضاً ولا يسمح لنا بأن نظهر في الجزيرة الصغيرة النائية في عرض البحر، في مظهر يسمح لراقصات باريس بأن تظهرن فيه أمام رواد الملاهي! وللعراة أندية خاصة في باريس، يسمونها «سولاريوم» واسمها يدل على معناها، أي أنها أندية لأخذ حمامات شمس، وأعضاء هذه الأندية يقضون أوقاتهم عراة وهم في داخل الأندية، ويرتدون ثيابهم عندما يفارقونها إلى الخارج، وفي حي «بيجال» الشهير بملاهيه يوجد ناد من هذا النوع لا يدخله غير النساء.

وقد سألت إحدى المشتركات فيه عما إذا كان النساء والرجال ينزعون ثيابهم كلها في داخل النادي، فقالت أن البوليس يفرض على الأعضاء في الأندية ما يفرضه عليهم في مستعمرات العري، أي أن يستر العضو عورته بقطعة من القماش، ولكن محدثتي أضافت قائلة: «هذا ما يريده البوليس، ولكنني نحن لا نصنع دائماً ما يريده البوليس!»

هذا ما رأيته من العري، وما سمعته عن هذه الرياضة العجيبة وقد عدت من رحلتي التي قادتني إليها الصدف بهذا الاختبار وهو أن العراة ليسوا عراة «تماما» أي مائة من المائة، وأنهم يعبدون الشمس، أو أننا نحن– من غير العراة – نظلمهم عندما نظن فيهم السوء، ونفكر في أشياء وأشياء لا يفكرون فيها هم، يا أخي!

والملحوسون في العالم أشكال وألوان. ولله في خلقه شئون.

ثلاث ذكريات

في البحر، في النيل، في البر

طلب إلي مرة أن أروي ثلاث ذكريات عن الماضي، بمناسبة عيد الميلاد عند المسيحيين، فطافت الذكريات الآتية على طرف القلم

ثلاث ذكريات لن أنساها، كل منها يذكرني بعيد من الأعياد! الأولى في البحر.. كان ذلك في سنة ١٩١٧، في الحرب العالمية السابقة. وكنت عائداً إلى مصر من مركز الجيش العربي أبان الثورة العربية. ركبت الباخرة من العقبة، ويالها من باخرة! كان اسمها «أريتوزا» وقد ركبتها مرتين في تلك الحرب، وخيِّل إلينا، رفاقي وأنا، إن هذه «الأريتوزا» ستنقلب ظهرا على بطن لو ضربتها سمكة من أسماك البحر الأحمر بطرف ذيلها ولكن لم تضربها سمكة– بل أوشكت أن تضربها غواصة! غواصة في البحر الأحمر.

نعم، هذا ما قاله لنا ربان الباخرة وهو يرتعد ويرتجف، عند ما بلغنا نقطة خطرة من الرحلة أي عندما بدأت الباخرة تلف حول «رأس مُحَمَّد» بعد خروجها من خليج العقبة وتأهبها للدخول في خليج السويس. كنت قد دعوت خمسة من الرفاق إلى الطعام وتناول كأس من البيرة احتفالاً بعيد الميلاد عند المسيحيين، وما كدنا نفتح أول زجاجة حتى صاح الربان!

غواصة! الله ينكد عليك! ما العمل؟ ليس في الباخرة التعسة شيء من أدوات الإنقاذ، فجعل كل منا يستعد لإنقاذ نفسه في البحر والوصول سباحة إلى البر، وكان البر قريباً جداً.. وألقى البعض أنفسهم في الماء.

ثم اتضح أن الغواصة الموهومة «قرعة» كبيرة الحجم أفلتت من أحد السباحين على الساحل المصري وراحت تترنح فوق الأمواج، فاعترضت باخرتنا العرجاء، وظنها الربان اللبيب غواصة! وباظ علينا العيد!

***

والثانية في عيد الفطر المبارك منذ أعوام لا أريد أن أذكر عددها لأن بين أبطال الحادثة سيدات! كنت في ذلك الوقت كثير الاختلاط بأسرة المسرح المصري، وحدث أن كانت إحدى رواياتي تمثل في أيام العيد، فخرجنا بعد التمثيل. أي بعد منتصف الليل، في نزهة على النيل، الممثلة الكبيرة فاطمة رشدي، والمرحوم عزيز عيد، وثلاثة من الأصدقاء، وأنا. ركبنا زورقاً صغيراً انطلق بنا يمخر عباب النهر، وجعلنا نغني، وفي ظلام الليل داهمنا مركب محمل حجارة ضخمة، وصدمنا صدمة قلبت زورقنا الصغير، ورحنا في وسط الماء! ولكن الله ستر، وتمكنا من تسلق المركب الجاني، ولم يصب أحد منا بسوء. ونشرت المجلات المسرحية الخبر في ذلك الوقت بعنوان: «الفن يغرق!»، ولكن العنوان كان فيه شيء من المبالغة، لأن الفن لم يغرق، بل عام ولا يزال عائماً إلى اليوم، غير أن ليلة العيد تلك، كانت ليلة سوداء... مبللة!

أما الثالثة فمسرحها طريق السيارات بين فلسطين ولبنان، على شاطئ البحر. كان ذلك في سنة ١٩٤١، والعلاقات متوترة بين الفرنسيين المقيمين في لبنان، والإنجليز المتربعين في فلسطين.

اضطرتني أسباب عائلية إلى السفر من مصر إلى بيروت، فحصلت على التصريح بمشقة كبيرة، ورحلت بسلام الله. ولكني أوشكت ألا أعود بالسلامة؛ فقد ركبت سيارة، ومعي مسافر عرفت فيما بعد أن اسمه عبد الوهاب الحبيب، وأنه تونسي يقيم في فرنسا، وقد سافر من بيروت بحيلة للانضمام إلى التونسيين المحاربين مع جماعة «فرنسا الحرة» التابعين لديجول.

وصلت السيارة إلى منعطف يبعد قليلاً عن مدينة صور، في طريقها إلى الحدود اللبنانية، وإذا بصوت يصيح «دحرج!». فوقفت السيارة، لأن عبداً من عبيد السنغال اعترضها في وسط الطريق مصوباً إليها بندقيته، بينما كان أربعة من رفاقه يدحرجون صخوراً لسد الطريق.

وقفنا، وتقدم منا ضابط فرنسي، وطلب أوراقنا، وجعل ينظر فيها، ثم سأل: «أين مبسيو أزيز؟». سكتنا، فصرخ مرة ثانية فثالثة: «مسيو أزيز؟». وحينئذ تنبهت إلى أنه يناديني، لأنني كنت أسافر بجواز.

– ممنوع إلى الأمام..!!

– ممنوع إلى الوراء...!

يحمل اسم «عزيز» لا اسم «حبيب جاماتي» تضليلاً للقوم..

«أنت مصري؟ من أين أنت قادم؟ إلى أين أنت ذاهب؟ لماذا؟ كيف؟ متى؟» إلى آخر الأسئلة المزعجة، ثم قال لنا حضرته أنه لا يمكننا أن نواصل السفر، لأن الأوامر الصادرة في ذلك اليوم تقضي بتوقيف جميع السيارات التي تمر بعد الساعة الخامسة، وكان الساعة الخامسة والدقيقة العاشرة!

– يا حضرة الضابط، دعنا نصل إلى الحدود.. نرجع إلى صور.. نصعد إلى الجبل..

– ممنوع! إلى الأمام ممنوع! إلى الوراء ممنوع!

لم يكن أمامنا إلا قضاء الليل في العراء، فأدخلنا السيارة في فسحة من الأرض بجانب الطريق، وفرشنا على الأرض ما يصلح للفرش من ثيابنا، ووضعنا حقائبنا حولنا وأخرجت أنا زجاجة من «العرقي» اللبناني الأصيل كنت أحملها معي إلى مصر، وقضينا ذلك الليل في سمر وشرب وحكايات، وكان السنغاليون طول الليل يقتربون منا ثم يبتعدون، ولم يقبلوا دعوتنا «للتعاون» معنا في الحديث والشرب. وفي الساعة السادسة صباحاً، سمح لنا الضابط بمواصلة السفر تلك، هي ليلة عيد الفصح من سنة ١٩٤١.

وتلك هي الذكريات الثلاث عن عيد الميلاد في البحر، وعيد الفطر في النيل، وعيد الفصح في الطريق.

الغريقة

لو اضطرت فتاة إلى اختيار بين اثنين: جبان تحبه، وشجاع أنقذ حياتها، فمن من الاثنين تختار؟ – إن حوادث هذه المهزلة – أو المأساة كما تشاءون، وقعت بين الإسكندرية والقاهرة، وما غيرت في روايتها شيئاً غير الأسماء.

«رجاء» فتاة متعلمة جميلة مهذبة أراد والدها أن تكون قدوة الفتيات فكانت كما أرادها، وابن عمها «رياض» شاب أكبر منها بعشر سنوات، يشغل في الحكومة وظيفة تضمن له مستقبلاً زاهراً في القضاء.أحبها وهي صغيرة، وبادلته الحب عندما تفتحت عيناها للحياة ومعانيها، ووافق أهلها وأهله على أن يكون الزواج خاتمة تلك العشرة الطيبة بين الفتى والفتاة.

وكانت «رجاء» تسافر من الإسكندرية، حيث أسرتها إلى القاهرة وحيث أسرة ابن عمها، لقضاء يومين أو ثلاثة كل أسبوع. وكان «رياض» من ناحيته يغتنم تلك الفرص للتبسط معها في الحديث عن المستقبل وما يحلم به من سعادة وهنا، له ولها.

ولرجاء صديق آخر، هو ابن خالتها «كامل» كان يتردد على بيت عمها في الأيام التي كانت تقضيها بالقاهرة، ويخرج مع الخطيبين في نزهاتهما

وسهراتهما ويتحبب إلى الفتاة، ولكن دون أن تشعر رجاء بأن تحببه من نوع غير المألوف بين شاب وابنة خالته. وكامل يميل إلى الأدب ويتمرن على الكتابة في الصحف والمجلات ويتنبأ له الذين يقرأون نفثات قلمه، أنه سيكون في مستقبل الأيام كاتبا يشار إليه بالبنان، وهو أصغر من رياض سناً لم يبلغ بعد الخامسة والعشرين ودخله من الكتابة لا يمكنه من الإنفاق بسعة مثل صديقه..

وحدث مرة أن دعا رياض أسرة عمه إلى نزهة في الصعيد، حيث عزم على قضاء أجازته السنوية، واستأجر ذهبية للسفر بها في النيل إلى الأقصر، ولبت الأسرة الدعوة شاكرة، وكان كامل أيضاً من المدعوين.

***

أبحر الجميع: رجاء ورياض وكامل، والأسر الثلاث في رحلة توفرت فيها أسباب الرحلة والتسلية والمرح، واستغرقت شهرين زار فيهما رياض وضيوفه تلك الأماكن الأثرية التي طالما تاقت رجاء إلى مشاهدتها عن كثب، بعد أن قتلتها درساً وبحثاً في الكتب.

وفي العودة رست الباخرة النيلية على مقربة من المنيا، وفي المساء طلع القمر وبسط على النهر المبارك غطاءً فضياً، فأبدت رجاء رغبتها في ركوب قارب صغير والطواف به في النيل، فأجابها رياض إلى رغبتها قائلاً:

– ألا ندعو رفيقنا «كامل» لمرافقتنا؟

– بلا شك!

فكر رياض في دعوة صديقه، ووافقت رجاء في الحال، لأنهما يعدانه أولى الأصدقاء وأصدق الأوفياء، ولكنه في هذه المرة اعتذر قائلاً أنه تعب يبتغي الراحة. ألحت عليه الفتاة فلم يقبل الدعوة، وألح عليه الشاب فكرر الاعتذار، لأنه أراد أن يتركهما حرين في تلك النزهة الخلوية المسائية.

ركب رياض إذن مع حبيبته، وراح يخوض بزورقه عباب النهر ورجاء ملتصقة به، مطمئنة إليه، ترمقه بعينيها وتطوف عنقه بذارعيها. وظل كامل على ظهر الباخرة الراسية على الشاطئ.

وحدث ما لم يكن في الحسبان، فما دان الزورق يبلغ منتصف النهر، حتى اصطدم بمركب شراعي وانقلب، فسقط رياض ورجاء في الماء..

جعلت الفتاة تتخبط وتصيح مستغيثة واسم حبيبها يتردد على شفتيها، وذراعاها تحاولان عبثاً مقاومة التيار الجارف، ولكن الشاب تركها وشأنها عرضة للغرق وراح يتلمس النجاة لنفسه، فعام نحو القارب وتمسك به. وأوشكت رجاء أن تذهب طعمة للجة النهر العميقة في ذلك الموضع، لو لم يتداركها ابن خالتها كامل، وقد طرقت أذنيه أصوات استغاثتها.

كان مستلقياً على مقعد، ينظر إلى الماء والسماء، ويفكر في موضوع يعالجه في مقاله القادم عندما حدث على سطح النهر ما حدث، فوثب من

مكانه وانتزع سترته، وألقى بنفسه في العباب مسرعاً إلى مصدر الصوت والاستغاثة.

وبينما كان رياض يرتجف من الخوف ويصم أذنيه عن سماع صياح الفتاة التي أحبها وأحبته، ويتكالب بيديه على أطراف الزورق كيلا يفلت ويسقط في الماء ثانية، كان كامل يغالب النيل، ويجازف بحياته، ويصل إلى الفتاة في اللحظة التي كانت فيها تستسلم للتيار فاقدة الوعي..

جبن رياض عن مواجهة الخطر لإنقاذ رجاء، ولم يفكر إلا في نفسه، ودفعت الشجاعة رفيقه إلى التعرض للخطر، فلم يفكر في عواقب عمله، ولم يضع نصب عينيه غير أمر واحد: انتشال الفتاة وإعادتها إلى البر سالمة. وفتحت رجاء عينيها على ظهر الباخرة وتذكرت ما حدث، وظلت الذكرى تعاودها كل يوم وكل ساعة، منذ تلك اللحظة الرهيبة.

ذهبت إلى دار ابن خالتها في القاهرة لشكره على ما فعل، وكان جالساً إلى مكتبه، يدون مذكراته اليومية، وهي عادة ألفها منذ الصغر، على أمل أن تفيده في حياته الأدبية في المستقبل، وهناك في تلك الخلوة، باح لها كامل بما يختلج في صدره من حب:

– لقد أحببتك يا رجاء.! أحببتك من زمن بعيد. وكم من مرة عولت على أن أبوح لك بحبي

– ولماذا لم تفعل يا كامل. لماذا؟

– كنت أنتظر التوفيق في عمل، لكي أعرض عليك الزواج وبيدي ثروة تمكنني من توفير الراحة وبحبوحة العيش لك!

– وهل المال كل شيء في الحياة؟

– ليس المال كل شيء! ولكن كل شيء لا يمكن الحصول عليه إلا بالمال!

– أما أنا...

– أما أنت، فإنك تحملين لي في صدرك ما يحمله القريب لقريبه من محبة خاصة، وكنت تجهلين ما أكنه لك من حب، وقد فات الوقت، فاضطرت إلى كتمان سري بين الضلوع، إبقاءً على هنائك، ورغبة مني في عدم التعرض لسيرك حياتك!

لم تجد رجاء غير كلمات جوفاء ترد بها على صيحة القلب، التي فاجأها بها ابن خالتها!

– أنا آسفة، يا كامل! آسفة جداً..

كامل يحبها وهي لا تدري، وكيف تدري وهو لم يبح لها بشيء، وهي من ناحيتها لا تحبه بل تحب ابن عمها الجبان الذي تخلى عنها في ساعة الخطر؟

منذ ذلك اليوم، أصبحت حياة الفتاة عرضة لعراك نفسي عنيف، وتنازع قلبها عاملان، وتقاذفت عواطفها موجتان!.. أتظل باقية على العهد الذي قطعته لرياض، أم تخون ذلك العهد متذرعة بما حدث، وتلقي بنفسها بين ذراعي كامل الذي ألقى بنفسه في الماء لإنقاذها؟

لقد أصبحت رجاء بعد تلك المأساة التي تجلت فيها أخلاق الشابين، تحتقر ابن عمها، ولكنها ظلت تحبه، وأصبحت تحترم ابن خالتها، ولكنها لا تحبه! فالاحتقار لا يتنافى مع الحب، وكثيراً ما يمشي معه جنباً إلى جنب، كما أن الاحترام كثيراً ما يرتضي بالمحبة، ويتنافر مع الحب فلا يماشيه ولا يجاريه!.. ذلك هو الصراع المؤلم، الذي احتدم أواره في صدر الفتاة الحائرة المسكينة، الصراع الذي جعلها تلعن تلك الليلة التي نزلت فيها إلى النهر مع رياض، وتلعن القمر الذي أضاءها والنسيم الذي هب عليها..

***

عادت رجاء إلى الإسكندرية مع أهلها، وأدرك الأب والأم أن ابنتهما قد تغيرت، وأنها لم تعد تلك الفتاة المرحة التي تملأ ابتسامتها الدار، ويشجي حديثها الناس، ويبهر جمالها العقول.

استدرجها والدها في الحديث فأفضت إليه بكل ما يتضارب في صدرها من مشاعر وفي رأسها من أفكار. وأقنعها بان تبقى على العهد، وتتزوج ابن عمها، وحدد يوما لعقد الزواج، وخارت عزيمة الفتاة فسكتت، ورضيت.

فماذا تفعل رجاء، وهي الفتاة المتعلمة الجميلة المهذبة؟.. لم تستطع أن تنتزع من قلبها حب الجبان الذي أعدوه لها زوجاً والذي تهواه. ولم تستطع أن تغرس، مكان ذلك الهوى، حب الشاب الشجاع الذي ظلت تنظر إليه نظرة فتاة إلى ابن خالتها، أو إلى أخيها.

وفي اليوم الذي كان مقرر أن تقام فيه الأفراح احتفالاً بزواج رجاء، خرجت الفتاة من بيت أبيها، في الإسكندرية، مدعية أنها على موعد مع بعض رفيقاتها على شاطئ البحر لوداعهن قبل الفراق. واستأجرت رجاء قارباً صغيراً يشبه ذلك القارب الذي كان سبب الفاجعة في النيل، وراحت تعالج المجاديف بذراعيها الفضيتين وتقاوم الأمواج مبتعدة نحو عرض البحر. ولم تعد من تلك الرحلة، فقد انقلب الزورق، أو قلبته الفتاة عمداً، وغرقت رجاء في خضم البحر، حيث لم يجازف أحد بحياته لإنقاذها، كما فعل كامل من قبل. ونقلت جثتها إلى بيت أبيها، ووضعت على السرير في غرفتها، حيث كانت من قبل تستسلم للأحلام الحلوة اللذيذة، وتحول العرس إلى مأتم وحلت الأتراح محل الأفراح..

وتساءل الناس: هل راحت رجاء ضحية حادث طارئ؟.. أم انتحرت تخلصاً من الحياة لأنها عجزت عن اتخاذ قرار لنفسها، في ذلك العراك الذي احتدم بين عقلها وقلبها، بين الحب وعرفان الجميل، وبين ولائها لابن عمها الجبان، ووفائها لابن خالتها الشجاع؟

***

ظل ذكر الفتاة على ألسنة الأهل والأصدقاء مدة من الزمن ثم أسدل النسيان ستره على ما فات! تزوج رياض، وتزوج كامل، ولكن كل منهما اليوم بنون وبنات، عسى الله أن يبعد عنهم وعنهن مهازل الحياة ومآسيها، ولا يقلق أحلامهم وأحلامهن بصورة رجاء الغريقة!

جرس في قرية

هناك.. في سفح جبل صنين الرابض عند إحدى قرى لبنان، تقوم كنيسة أثرية في برجها جرس مثلوم عتيق.. يطلق صوته في المناسبات السعيدة داعياً الناس إلى الصلاة. فما هي قصته؟. وما سر بقائه على حالته اليوم؟

لم يذكر سكان الجبال في لبنان شهراً عمت فيه الكآبة، واشتد البرد، وهطلت الأمطار، وتكدست الثلوج، وبدأ فيه الناس متجهمي الوجوه عابسين، كشهر ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩١٧. لم يكن لبنان الذي يتمتع في ذلك الوقت بحكم ذاتي ضمنته سبع دول كبار، في حرب مع أحد!.. وبالرغم من ذلك فقد قاسى من الويلات ما لم تقاسه غير البلدان المجتاحة، وأفنت الحرب العالمية بين سنتي ١٩١٤و ١٩١٨ ما يقرب من ثلث سكانه، أودى بحياتهم الجوع والمرض والحرمان أو ماتوا في المنفى أو على أعواد المشانق.. أما الذين تغلبوا على الصعاب وظلوا على قيد الحياة، فإنهم ينقسمون إلى فريقين: الأغنياء أو الذين حسبوا للأيام السود حسابها، والنفعيون الذين استغلوا ظروف الحرب وتاجروا بدماء مواطنيهم!

وكانت العين ترى في كل مكان أشباحاً هزيلة، في أطمار بالية.

تطوف على جوانب الطرقات أو بين أشجار الغابات، باحثة عن جذور تتبلغ بها، أو قشور تخدع بها البطون الفارغة، فتطيل يوماً أو ليلة في حياة لم تعد تملك من الجلد ما يكفي للتمسك بها!..

أما في داخل البيوت المتهدمة، التي تداعت جدرانها وتهدمت سقوفها، فشيوخ ونساء وأطفال، جثموا في أماكنهم جامدين، ينتظرون الساعة التي حددتها الأقدار القاسية، فأما الفرج وأما الموت، وفي الحالتين راحة وخلاص!

القرية الصغيرة المعزلة منكمشة على بعضها في طرف الوادي السحيق، عند قدم جبل صنين الشاهق. وقد خلت من مظاهر الحياة تحت غطاء كثيف من الثلج الناصع البياض انكماشاً يدل على أن جميع سكانها لم يتناولهم المنجل الحاصد بعد، غير خطوط من الدخان، تنبعث من بعض البيوت، وتنبئ بأنه لا يزال بداخلها من يوقد النار!

وقد اقبل اليوم الرابع والعشرون من الشهر، وكنيسة القرية المتواضعة، التي تنتشر شجرة السنديان القديمة فوقها رواقاً أخضر نمقته الثلوج بتموجات بيضاء، لم يفتح أحد بابها، ولم يرتفع فيها صوت بدعوة الناس إلى الصلاة!

ومن بين أولئك الجبليين الذين اشتهروا بالقوة والجلد والصبر على المكاره، لم يخرج واحد من بيته، ليذهب إلى الكنيسة، ويدق جرسها العتيق أيضاً. مثل السكان، خيالاً لما كان بالأمس! أما تصدع نحاسه. واختنق

صوته. واختفى رنينه؟ ما الفائدة إذن من شد حباله؟ إن إبقاءه صامتاً في برجه. ساكناً في قبته. لخير وأوفى!

أما كاهن القرية. فقد قضى نحبه بذبحة صدرية، بسبب تفانيه في زيارة المرضى، ومواساة الجياع، والصلاة على جثث الأموات! وفي الحجرة الملاصقة للكنيسة، حيث كان الكاهن يقيم ويحتفظ بأدوات العبادة، لم يبق شيء من الشموع والزهور والزيوت والثياب. فهل يذهب أحد إلى كنيسة لم يعد فيها شيء من مستلزمات الكنائس؟

إذن، ففي عيد الميلاد هذا، عيد سنة ١٩١٧، سيصلي الناس في بيوتهم – أو لا يصلون.

وأما المآدب وموائد الطعام التي كان يفرح بها الكبار والصغار على السواء، والهدايا التي ينتظرها الأطفال من الطفل يسوع، فلا أحد يتحدث عنها. أو يشير إليها. وستكون أثمار البلوط المشوية في المواقد. الغذاء الوحيد في ليلة العيد. وسيصدق الأطفال ما قيل لهم من أن الرياح الجامحة. والعواصف الهوجاء، والثلوج المتراكمة في الوادي، قد حالت دون وصول الهدايا..

وأسدل الليل ستاره على القرية. ولم يكن الستار في عام من الأعوام أشد سواداً منه في هذا العام، وقد يكون هذا الستار كفناً أعدته السماء لسكان القرية المحرومين، فإن كثيرين منهم أن يطلع عليهم النهار، بل

سوف يرحلون عن هذا العالم قبل أن تشرق الشمس، ويلحقون بالذين سبقوهم إلى القبر!

وفجأة، مزق الفضاء طنين أجش مبحوح.. طنين اقرب إلى رنة الجرس.. ومع ذلك، فقد أدرك سكان القرية أن السمع لم يخدعهم، وإن ذلك الصوت إنما هو منبعث من قبة الكنيسة.. وإن جرسهم يدق بفعل فاعل أو بسحر ساحر، فيملأ طنينه غور الوادي وسفح الجبل، ويطرق أبواب البيوت ويندفع إلى داخلها صائحاً بالقابعين فيها: "نهوضاً يا أبناء الجبال. تعالوا.. سنحتفل بالعيد الليلة.. سنأكل ونرقص الليلة.. سنصلي إلى الله الليلة!"

فتحت الأبواب الواحد بعد الآخر. وخرج منها السكان يصغون إلى الصوت المدوي، وينادي بعضهم بعضاً، ويبحث الجار عن جاره في الظلام الحالك، وبدت المصابيح والمشاعل تتمايل في الأيدي المرتعشة، ومشت القرية جماعات جماعات إلى الكنيسة المهجورة..

يا للأعجوبة! يا للمعجزة!أن باب الكنيسة مفتوح على مصراعيه، والأنوار تتلألأ على الداخل، منبعثة من الشموع التي تملأ الهيكل وأركان بيت الله الأربعة.. وجو الكنيسة عابق برائحة ذكية.. رائحة البخور المتصاعد من المجامر والمباخر.. والجرس يدق بلا انقطاع، بل يصيح ويهتف ويغني ويهلل!

واجتاز السكان الواحد أثر الآخر عتبة الباب، وغمسوا أطراف أصابعهم في جرن الماء المقدس، وسجدوا سجدة واحدة حسب الطقوس المرعية من قديم الزمان، وانتشروا في أرجاء المعبد متسائلين: "من الذي صنع هذه المعجزة؟"

واتجهت الأنظار كلها إلى رجل واقف إلى يمين الهيكل، وقد امسك بيديه الحبل المتدلي من ثقب في سطح الكنيسة وراح يدق الجرس المصدوع..

ذلك الرجل هو الذي أيقظ القرية، ودعاها إلى الكنيسة للاحتفال بعيد الميلاد..

وصاح أحد الشيوخ:

– هذا ميلاد!

وطاف هذا الاسم على الشفاه، فردده الكبار مندهشين، وتمتمة الصغار مستفسرين: أولئك يذكرون الرجل، وهؤلاء يطلبون المزيد من المعرفة..

وجرس الكنيسة يدق في قبته!

والقرية الآن بأسرها جاثية أمام الهيكل.. ترتل الصلوات وتمزجها بدموع الفرح..

وأخرجت الصنوج من صندوقها، فتلقفتها أيدي اثنين من القرويين، وانطلقت أنغامها الصداحة تتجاوب في أرجاء المكان، وترد على تحية الجرس بأطيب منها!..

وتصاعدت من الحناجر أنشودة العيد: "المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام وللناس المحبة!"

ووقف الرجل الذي فتح الكنيسة وزينها وأضاءها ودق جرسها بعد طول السكوت، على درجات الهيكل، وخاطب الحاضرين قائلاً:

– لقد عرفتموني يا مواطني الأعزاء.. فأنا ميلاد.. نعم، ميلاد يتيم الأبوين، الفقير المعدم، الذي تبينتموه في صغره فوجد في كل رجل من رجالكم أباً، وفي كل امرأة من نسائكم أما.. لم يكن لي بيت آوي إليه والجأ، فوجدت في كل بيت من بيوتكم ملجأ ومأوى.. كنت مريضاً فعالجتموني، وجائعاً فأطعمتموني، وعارياً فكسوتموني.. أردت أن أجرب حظي بعيداً عن موطني، ففاتحت كاهن القرية برغبتي، واكتتبتم جميعاً بما كان يلزمني من نقود للرحيل.. لقد هاجرت على حسابكم، وسافرت على نفقتكم، وكان ذلك منذ عشرين سنة! نعم، عشرون سنة قضيتها في الغربة، أعمل واسعي وأكد وأنجح.. وقد جمعت ثروة كبيرة، ولم أرزق أبناء، لأنني لم أتزوج، بل كنت دائماً أفكر فيكم. أنتم أسرتي، أنتم أبي وأمي وزوجتي وأبنائي.. وما عولت على العودة إلى القرية، حتى نشبت الحرب وانقطعت المواصلات.. ووصلت إلى مسامعنا، في المهاجر الأمريكية. أنباء مزعجة

عن الحالة في هذا الوطن.. فقد قيل لنا أن الناس في جبل لبنان يعانون أنواع الظلم واللذة والإرهاق والحرمان،. بل يموتون جوعاً في الغابات والطرقات.. حينئذٍ، لم يعد لي غير رغبة واحدة وهدف واحد: أن أعود إليكم في أقرب وقت، بالرغم من الحرب والحدود المغلقة وطول المسافات ومتاعب الانتقال ومصاعبه، حاملاً إلى القرية تلك الثروة التي جمعتها من أجلكم.. وها أنذا قد عدت إليكم. ولا داعي إلى السؤال عن كيفية العودة، اجتياز القارات والبحار.. ويكفيكم أن تعلموا أنني هنا، وأنني هنا، وأنني غني، وأنني حملت إلى المغارة التي تعرفونها في منفذ الوادي الموحش، ما يكفي من المؤن لتغذية القرية: ومن الملابس لدفع غائلة البرد عن أهلها، مهما يطل أمد الحرب وتتسع ويلاتها.. لن يجوع أحد بعد اليوم ولن يفتقر أحد إلى كساء.. وسيعم الفرح كل بيت وكل كوخ وكل عائلة.. وسيكون عيدي غداً – إذ أنني أدعي "ميلاد" كما تعلمون – عيد القرية بأسرها!..

لقد سدد ميلاد دينه نحو قريته. وبعد انتهاء الصلاة في الكنيسة التي استعادت رونقها وبهجتها، توجه السكان، على ضوء المشاعل والمصابيح. إلى المغارة حيث كان المغترب الوفي قد خبأ، بطريقة لم يعرفها أحد، كل ما يمكن أن يحتاج إليه القرويون في حياتهم.. فإن اليتيم العائد بعد عشرين سنة لم ينس شيئاً، بل حسب أيضاً حساب الأطفال فجاءهم بهدايا العيد من كل حجم ونوع. وكان عيد الميلاد في سنة ١٩١٧، أوفر الأعياد مرحاً وسعادة وخيراً، في القرية اللبنانية المنعزلة..

وعاد سكان القرية إلى الاجتماع في ميدان الكنيسة، وفي ظلال السنديانة الوارفة، في صباح يوم الأحد من كل أسبوع. وحل كاهن شاب محل الكاهن الشيخ الراحل، الذي شيد له السكان مدفناً تحنو عليه أغصان صفصافة باكية، واطمأن الاهلون على مصير أبنائهم، فالكاهن الجديد عالم يحمل الشهادات، وسيلقنهم القراءة والكتابة وقواعد الحساب وحسن السلوك.

وأراد ميلاد أن ينزع الجرس المصدوع من قبته، ويضع مكانه جرساً سليماً يليق بالقرية في عهدها الجديد. ولكن وفداً من السكان ذهب إليه راجياً منه العدول عن عزمه. وتكلم كبير القوم شارحاً:

– إن هذا الجرس القديم المثلوم كان للقرية فألاً حسناً.. ونحن الشيوخ الذين لم نغترب مثلكم ولم نخلط بالأوساط التي عرفتموها في الغرب، لا نزال نؤمن بالتمائم والتعاويذ.. وهذا الجرس في عرفنا بركة يجب علينا الاحتفاظ بها. فقد أنبأتنا رناته بعودتك يا ميلاد، وبشرتنا بخلاصنا من البؤس والذي كنا فيه: فهذا الجرس يجب إذن أن يبقى في برجه. فوق الكنيسة!

ووافق ميلاد أهل القرية على رأيهم. ولا يزال الجرس المثلوم إلى يومنا هذا ما في مكانه، يطلق صوته الأجش المبحوح في الفضاء داعياً الناس إلى الصلاة. فتتجاوب الأصداء بطنينه في الأدغال والوعور والوديان، في سفح جبل صنين الشاهق.

فرعون في باريس!

في وسط أكبر ميدان بباريس مسلة مصرية. فهل تعرف تاريخها؟

في شهر أكتوبر ١٩٤٨، أبدى الشيوعيون نشاطاً عنيفاً بمناسبة انعقاد دورة هيئة الأمم المتحدة بباريس فنظموا سلسلة من المظاهرات اشتبكوا في بعضها بقوات البوليس، ودفعني الفضول ,إلى تتبع ذلك النشاط والسير وراء تلك المظاهرات، فقادتني قدماي في أحداها إلى ميدان الكونكورد حيث وقفت جماعات من الشيوعيين الصاخبين وكانوا يصغون إلى خطيب من خطبائهم فسمعته يقول: "سنشنق أعداء الشعب في أعلى هذا الهرم!" ولكن أحد رفاقه التفت إليه وصحح كلامه بقوله: "في أعلى هذه المسلة!" وضحك البعض، وصفق البعض الآخر، ووصلت قوة من البوليس فتفرق المستمعون ومعهم الخطيب!

ونظرت إلى أعلى المسلة المصرية التي تتوسط ذلك الميدان الذي يعد أجمل الميادين في العالم، وقلت في نفسي: "المشنوق مشنوق، سواء أعلقوه في هذه المسلة العالية أو في وتد!"

وأردت أن امتحن معارف المارة من عامة الشعب، فخاطبت أربعة أشخاص على اعتبار أنني غريب أستطلع معالم عاصمتهم، وسألتهم عن

المسلة ومصدرها فأجمعوا كلهم على القول بأنها مصرية ولكنهم اختلفوا في الرواية عن كيفية وجودها بباريس...

فقد قال الأول: أن نابليون حمل معه هذه المسلة من مصر عندما فتحها.

وقال الثاني: أن ملك مصر أهداها إلى فرنسا، ولكنه لم يعرف أي ملك من ملوك مصر أهداها، ولا اسم الملك والرئيس الذي أهديت إليه!

وقال الثالث: أعذرني يا سيدي! أن كل ما أعرفه عن هذه المسلة أنها مسلة وأنها منصوبة في هذا الميدان حيث أراها منذ عهد الطفولة!

ثم سألت إحدى السيدات، وهي في مقتبل العمر، جميلة فارعة القامة تجر أمامها طفلها في عربة، فقالت "هذا يا سيدي عمود مصري اسمه "أوبلسك" والذي وضعه هنا هو نابليون بونابرت، وعلى صفحات هذا الأوبلسك – كما ترى – كتابة عربية منقوشة من أعلى إلى أسفل لأن العرب يكتبون مثل اليابانيين!" فشكرت هذه السيدة على سعة إطلاعها وقلت: زادك الله علما!!

* * *

تقوم مسلة الأقصر في أكبر وأجمل ميدان بباريس منذ أكثر من مائة سنة، والفرنسيون لم يسرقوها من مصر كما قد يتبادر إلى الأذهان، بل أن الأثر المصري الرائع قد أهدى إليهم اختياراً.

ففي سنة ١٨٣٠، دارت مخابرات بين مُحَمَّد على باشا الكبير وملك فرنسا لويس فيليب – وكانت العلاقات بين البلدين على أحسنها والتعاون على أشده – لنقل إحدى المسلات الفرعونية إلى باريس هدية من مصر إلى فرنسا، وأشرف على تلك المخابرات العالم الفرنسي شامبوليون الابن، حلال الغاز اللغة الهيروغليفية ومكتشف حجر رشيد المشهور.

وانتهت المخابرات بأن أهدى مُحَمَّد علي إلى لويس فيليب إحدى مسلات الأقصر من عهد رمسيس الثاني. وأهدى ملك فرنسا إلى عزيز مصر ساعة دقاقة كبيرة الحجم بديعة الصنع لا تزال إلى الآن محفوظة في قصر الجوهرة بقلعة القاهرة. وقد تعمد ملك فرنسا اختيار هذه الساعة وإرسالها إلى مُحَمَّد علي لأنه أراد بذلك أن يحيي ذكرى حادثة مماثلة لها في عصر الإمبراطور شرلمان، الذي أهدى إليه هرون الرشيد أول ساعة عرفتها فرنسا في تاريخها.

وأوفد لويس فيليب إلى مصر البارون تيلور والمهندس البحري لوباس لتولي نقل المسلة الهائلة، ورحب مُحَمَّد علي بالمبعوثين ومهد لهما السبيل لإنجاز مهمتهما وسافر الرجلان إلى الأقصر، مع لفيف من المعاونين، في باخرة أطلق عليها أيضا اسم "الأقصر" ويتقدمها زورق بخارى اسمه "أبو الهول"

وكانت عملية نزع المسلة من الأرض صعبة شاقة. ولكن لوباس كان قد وضع تصميماً دقيقاً مبتكراً، شغل من وقته بضعة أشهر، فتمكن ذلك المهندس البارع من التغلب على جميع الصعاب دون أن تصاب المسلة بضرر، وفي ٢٣ أكتوبر سنة ١٨٣١، كانت المسلة محملة على ظهر الباخرة التي عادت إلى الإسكندرية ثم أقلعت منها إلى فرنسا فوصلت إلى ميناء طولون في شهر يوليو سنة ١٨٣٣، وواصلت السفر إلى ميناء هافر حيث أنزلت المسلة إلى البر.

ولم تكن عملية نصب المسلة في ميدان الكونكورد – وكان اسمه في ذلك الوقت ميدان لويس الخامس عشر – أقل مشقة من انتزاعها من مكانها الأول في الأقصر وقد تم ذاك في شهر أغسطس سنة ١٨٣٤.

ولكن الاحتفال الرسمي بإزاحة الستار عن المسلة تأخر إلى سنة ١٨٣٦ فشاهدت باريس في تلك السنة احتفالين عظيمين: الأول بمناسبة انتهاء العمل في قوس النصر بميدان النجمة في شهر يوليو. والثاني بمناسبة الانتهاء من تجميل ميدان لويس الخامس عشر وتنصيب المسلة على قاعدتها، في ٢٥ أكتوبر، الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر!

ووضعت داخل القاعدة علبة من خشب الأرز فيها كمية من قطع النقد الذهبية والفضية، تحمل صورة الملك لويس فيليب واسم وزير الداخلية والمهندس لوباس – ولم يذكر فيها اسم مُحَمَّد علي!

* * *

وليست مسلة الأقصر الأثر الوحيد الذي يذكر الناس بمصر، في العاصمة الفرنسية، فإن متحف اللوفر وغيره من متاحف فرنسا تغص بالتحف والتماثيل والحلي واللوحات المأخوذة من الأماكن الأثرية بمصر، فضلاً عن أن بعض الشوارع والميادين بباريس تحمل أسماء مصرية، كميدان الأهرام، حيث تمثال جان دارك، وشوارع القاهرة والإسكندرية وأبي قير وهليوبوليس وغيرها، وكلها تخلد ذكر المعارك التي ربحها بونابرت في حملته على مصر.

ولعل أغرب اثر يذكرنا بمصر في باريس، هو ذالك الأثر الذي جهل الكثيرون وجوده، ولا يراه غير القليلين من العلماء أو الأطباء، وأعني به هيكل سليمان الحلبي العظمى! فقد أعدم الفرنسيون في مصر هذا الرجل الذي قتل قائدهم الجنرال كليبر، وكان إعدامه في تل. العقارب بمصر القديمة سنة ١٨٠٠، وبعد تعذيبه وضع على الخازوق وتركت جثته طعمة للجوارح شهراً كاملاً، ثم نقل هيكله العظمى إلى فرنسا مع رفات القائد كليبر، ووضع الهيكل في متحف لعلم التشريح ولا يزال فيه إلى الآن، ويبلغ طول الهيكل خمسة أقدام وبوصتين، وتظهر آثار الحرق في عظم اليد اليمنى لأن الجلادين وضعوا يد القاتل في النار، ويتبين الناظر إلى الهيكل أيضاً أثر الخازوق في اختراقه الجسم من أسفل إلى أعلى، إذ حطم رأسه حلقتين من السلسلة الفقرية، فوضعت مكانهما حلقتان صناعيتان!

ومن غرائب الصدف أن المسلات المصرية – سواء في مصر أو في الخارج – قائمة الآن على ضفاف الأنهار، ففي مصر تقوم هذه المسلات

على مقربة من النيل المبارك، ومسلة باريس قائمة على ضفة نهر السين، ومسلة لندن قائمة على ضفة التاميز، ومسلة نيويورك قائمة على ضفة الهدسون، ومسلة روما قائمة على ضفة التيبر!

ولكن المسلسلات المصرية في الخارج محظوظة مدللة، فالقوم يحوطونها بعنايتهم ورعايتهم، أما المسلات الباقية في مصر فنصيبها الإهمال، ومصيرها إلى التلف!

خيول تأكل لحوم الأعداء

لكل شعب، ولكل جماعة، أساليب خاصة في الحروب.
وبعض هذه الأساليب لا يخطر ببال!.. وهذا مثل منها:

"على دالو" رجل غريب الأطوار. عرفته في سنة ١٩٢٠ في بغداد، و كان في ذلك الوقت يشتغل ترجماناً في الجيش البريطاني. ورأيته بعد ذلك بأعوام في عدن، ثم التقيت به في سنة ١٩٣٤ في جيبوتي بالصومال الفرنسي، وكنت في طريقي إلى المحيط الهندي..

وعلى دالو مسلم، وهو من أب هندي، وأم حبشية. يحسن التخاطب بخمس لغات: العربية والهندية، والانجليزية، والحبشية والفرنسية. وهذا ما جعل الانجليز يستخدمونه في الحرب العالمية الأولى ويدفعون له أجراً باهظاً..

وعلى دالو جعبة أخبار وينبوع لا ينضب من المعلومات عن بلدان الشرق، والشعوب الضاربة فيها، وعاداتها وتقاليدها. وهو يكره الزواج ولكنه لا يكره النساء و لست أدري هل هو حي يرزق أم توفاه الله، فقد انقطعت أخباره عني منذ بضعة أعوام.

وقد دنوت من أخبار على دالو ومعلوماته الشيء الكثير. وإلى القاري. ما قصه على في جيبوتي ونحن في انتظار الزورق الذي أقلني إلى

الباخرة الذاهبة إلى الخليج الفارسي.

قال لي وهو يشير إلى رجل يقود حصاناً في الطريق:

– أترى هذا الرجل؟ لو علم الايطاليون أنه هنا لدفعوا مليوناً من الليرات للقبض عليه.

– وماذا صنع لكي يحقد عليه الايطاليون إلى هذا الحد؟

– حصانه أكل ضابطاً إيطاليا!

– ومتى كانت الخيول تأكل البشر؟

– منذ مئات السنين إلى أيامنا هذه، في قبائل الدناكيال الحبشية.

– وكيف حدث هذا؟

– دعني أولاً أقص عليك القصة التي يرويها القوم في جبالهم الوعرة وسهولهم القاحلة، ثم أعود إلى حديثي عن هذا الرجل.

"يقول الدناكيل أنه حدث في قديم الزمان أن تألبت القبائل والعشائر في الحبشة والصومال على قبائل الدناكيل، فهزموا في الحرب هزيمة منكرة، وأصيبوا بخسائر فادحة، واتضح لهم أن افتقارهم إلى الخيل كان عاملاً من عوامل هزيمتهم. ولذاك، فقد عقد زعماؤهم مجلساً قرروا فيه الانصراف إلى العناية بتربية الخيول.. وتفتق ذهن أحدهم عن رأي عجيب، فقد اقترح أن تدرب الخيول على أكل اللحوم أولاً، ثم التهام لحوم

البشر، لكي تتحول الخيول في الميدان لا إلى ركائب فقط بل إلى جنود محاربة أيضاً.

"ومنذ ذلك اليوم جعلت بعض عشائر من الدناكيل تروض خيولها على احتمال الجوع، فتمكث بضعة أيام بلا طعام ولا ماء. ثم يقدم صاحب الحصان لحصانه قطعة من قلب خروف أو كبده أو أمعائه، فيأكلها الحصان ويطالب المزيد.. ويقدم له صاحبه بدل الماء وعاءً مملوءاً بدم ذلك الحروف، فيشر به الحصان!

"ومرت الأيام، فإذا بالخيل لا تقبل على طعام غير اللحم، ولا ترضى بشراب غير الدم، وتطور التدريب إلى مرحلة أخرى، هي تقديم لحوم البشر ودمائهم بدل لحوم الخرفان ودمائها. فكان القوم إذا ما خرجوا إلى غزو، وقتلوا عدوا، فتحوا أحشاءه بالخناجر، فتهرع خيولهم لالتهام القلب، والكبد من جثة القتيل.

"ولنعد الآن إلى صاحبنا هذا.. فقد غزت أسرته قرية في الصومال الايطالي.. وعاد الغزاة إلى جبالهم حاملين معهم الأسلاب وتعقبتهم شرذمة من الجنود الايطاليين بقادة ملازم شاب.. وسدد الملازم رصاصة إلى الرجل فأصابته وألقته على الأرض.. وهنا هاج حصانه آكل اللحوم، فوثب على حصان الضابط ونهش صدره، ثم تحول إلى الضابط، وقد سقط على الأرض أيضاً وراح يمعن فيه عضاً ونهشاً، وأكل قلبه وكبده وأمعاءه، بل كاد يلتهمه بكامله.. وذعر الجنود الايطاليون لهذا المنظر الفظيع. فولوا الأدبار هاربين.. وعاد الحصان المفترس إلى صاحبه الذي تمكن من اعتلاء ظهره،

واللحاق برفاقه!.. ولكنه آثر الهرب من بلاده خوفاً من تعقب الايطاليين له للانتقام منه. ولو عثروا عليه اليوم لعلقوه على أقرب مشنقة!"

– إذن، فكيف يكون الدناكل أنفسهم إذا كانت خيولهم على هذا النحو؟

– أنهم شجعان إلى أبعد حدود الشجاعة. فيهم كثير من فضائل العرب وعيوبهم. فإنهم يكرمون الضيف ويفتدونه بالمهج. ولا ينسون الإهانة، بل ينتقمون لأنفسهم ولو بعد عشرات السنين والثأر عندهم من التقاليد الموروثة. والعريس يخطف عروسه. والعشائر يغزو بعضها البعض، ولكنهم يعملون بالمثل القائل: أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب.. وهم مسلمون، ولكن معارفهم في أصول الدين وأحكامه وتعاليمه قليلة.

– وهل يبيعون خيولهم المدربة على أكل الحوم؟

– كلا. وإذا حدث هذا، فإن الذي يبيع حصانه يعاقب بصرامة، فضلاً عن أن الحصان المدرب على تلك الرياضية الدموية لا يمكن إلا عند صاحبة الأصيل، بل يعتدي على صاحبه الجديد إذا لم يكن من أبناء العشيرة!.

– إذن، فلا فائدة من التفكير في شراء حصان من هذا النوع وقانا الله شره!

مأساة في غابة

المحب لا يخشى المخاطر وإلا يقدر العواقب.. وهذه قصة محب وأجه الأسد وصارعه!

عرفت "مستر ميكلس" شيخاً في السبعين من العمر، قضى منها أربعين سنة في مطاردة الوحوش الكاسرة واصطيادها، وكان يعرف مجاهل إفريقيا وآسيا وأمريكا كما تعرف أنت وأنا شوارع الحي الذي نسكن فيه وأزقته، وقد سافرت مرة في صحبته، على باخرة كانت في طريقها إلى الهند، وقضينا معاً بضعة أيام بين السويس وعدن، قص على "مستر ميكلس" خلالها طائفة من الحوادث التي وقعت له في رحلاته ومغامراته، وإليك واحدة منها أرويها لك كما رواها لي بنفسه:

كنا سبعة من الأمريكيين في طلب الصيد والقنص، وهدفنا بلاد الحبشة الشرقية والجنوبية، فذهبنا من السودان إلى مستعمرة: أوغندا، حيث قضينا ثلاثة أسابيع في إعداد العدة لتلك الرحلة الخطيرة، وهناك في بلدة "مانجو" وقع اختيارنا على أربعة من الزنوج كنا قد عرفناهم وخبرناهم في مغامراتنا السابقة، فأخذناهم معنا، وكان بينهم واحد أطلقنا عليه اسم

"باكوبي" ومعنى هذه الكلمة "فلاح" في لغة أوغندا، لأنه كان دائماً يردد أن الصيد صناعة أكثر ربحاً من صناعة "الباكوبي"

قطعنا إذن المسافات الشاسعة في أرض وعرة المسالك، كثيرة الغابات والمستنقعات. وبلغنا الجبال الحبشية غاية رحلتنا، حيث التحق بنا أدلاء وخدم من الأحباش، فأصبح عددنا عشرين شخصاً، وضربنا هناك المضارب استعداداً للبحث عن الأسود وغيرها من الحيوانات المفترسة.

ولكن أول طريدة وقعت تحت أيدينا لم تكن أسداً ولا لبؤة... بل فتاة زنجية هاربة من عصابة من تجار الرقيق... وقد عثر عليها "باكوبي" على ضفاف غدير وهي مشرفة على الموت، فأنقذ حياتها: وجاء بها إلى مخيمنا، حيث أسعفناها بالعلاج والغذاء.

وقال أحدنا: سنسميها "عائدة" فإن بطلة الرواية الغنائية الشهيرة كانت فتاة تشبه هذه بلا شك!

وأقامت "عائدة" معنا، تعدلنا الطعام وتغسل الثياب.

وانتقلنا بخيامنا من مكان إلى مكان تجوب الأدغال، ونتسلق السفوح، ونضرب في الوديان، فاصطدنا فهدين وثلاثة ذئاب وضبعا وخمس حيات هائلة الحجم، وغيرها من الحيوانات الصغيرة.

وبعد ستة أسابيع من السير والمسير، فجأنا "باكوبي" بخبر أثار بيننا الضحك والتنكيت. فقد دخل على الشاب ذات صباح وقال أنه يحب لا

"عائدة" ويرغب في اتخاذها زوجة له. وأضاف أن الفتاة يجب عليها من تلك اللحظة فصاعداً أن تمتنع عن المزاح مع رفاقنا جميعاً لا فارق بين الأمريكيين البيض والخدم السود!

فأطلعت القافلة على رغبة صاحبنا، واقسمنا له كلنا أننا سنحترم إرادته في المستقبل.

وبلغت غيرة "باكوبي" من الرجال الآخرين، وخوفه على الفتاة منهم، أن جعل يصطحبها معه كلما خرج مع فريق منا إلى الأدغال في مطاردة أو كمين. فنصحناه بالعدول عن تلك المخاطرات التي كانت تعرض حياة الزنجية المسكينة للموت في كل لحظة. ولكنه لم يكن في حالة تسمح له بالإصغاء إلينا، والأخذ بنصائحنا.

ووقع ذات مساء ما كنا نخشاه!

كان الإدلاء، منذ يومين، يؤكدون لنا أننا في بقعة تجوس خلالها الأسود، ولم يكونوا مخطئين. فقد سمعنا في الليل زئير ملك الغابات يملأ الفضاء فتجاوبه الأصداء. وفي اليوم الثالث، أصبحنا ونحن على يقين من أننا على مقربة من العرين فخرجنا في ثلاث فرق، وسرنا في ثلاث جهات، وكان "باكوبي" وعائدة في فرقتي.

أقمنا كميناً على ماء ثبت عندنا أن الأسود تقصده في المساء. وما قربت الشمس من الغروب، حتى اهتز الجو بزئير طربت له نفوسنا،

فصحت برفاقي: "احذروا، وتنبهوا.."

وما هي غير دقائق، حتى برز لنا من بين النباتات العالية، والصخور القائمة، أسدان لا أسد واحد: هذا من اليمين وذالك من اليسار...

ليس المجال مجال وصف، لكي أتحدث عن الشعور الذي يستولي على الصياد عندما يجد نفسه على مسافة عشرين متراً أو أقل من أسد يرد الماء، وهو يتلفت في الجهات الأربع، والهواء يلعب بذوائبه، وقد كشر عن أنيابه وأرسل الشرر من عينيه.

والأسد يشم رائحة العدو.. ولكنه لا يبادر الصياد بالهجوم إلا إذا بدت من الصياد حركة، أو إذا كان الحيوان جائعاً يبحث عن فريسة يلتهمها.

أطلقت رصاصة واحدة على الأسد القادم من اليمين، فكانت الطلقة موفقة وأصابت منه مقتلاً فتدحرج على الصخر إلى قاع الغدير.

ولكن الأسد الآخر هاج وماج، وكان مقبلاً من اليسار نحو صخرة كمن وراءها باكوبي ورفيق أمريكي ومعهما الفتاة عائدة.

"فأطلق الأميركي رصاصة أخطأت الأسد. وأطلق باكوبي بدوره رصاصة ثانية أصابته في فخذه، فزاده الجرح هياجاً واضطرب الأمريكي وصاحبه الزنجي، وخرجت عائدة من مكمنها تطلب النجاة إلى الناحية التي

كنت أنا رابضاً فيها، فوثب الأسد وثبة واحدة وهبط على مسافة من الفتاة لا تتجاوز المترين..

خيل إلى أنها هالكة لا سبيل إلى إنقاذها.. وتحفز الأسد للوثوب ثانية... ثم وثب..!

أضاع باكوبي رشده.. فأفرغ رصاص بندقيته على غير هدي، وفعل الأمريكي مثله، بدون أن يتمكن من الحيوان الثائر، وقفز الزنجي بعد ذلك من أعلى الصخرة وخنجره بيده، وهاجم الأسد من الوراء، محاولاً الوثوب على ظهره، وطعنة في عنقه، وذلك في اللحظة التي كان فيها الأسد ينشب مخالبه في صدر الفتاة التعسة، التي سقطت على الأرض تصبح كالذئبة المذبوحة!

في حياة الصياد لحظات يجب عليه فيها أن يكون مالكاً لا عصابه، رابط الجأش إلى أبعد حد، لكي ينقذ نفسه وينقذ رفاقه من الهلاك. وتلك اللحظة التي مرت بي كانت من اللحظات المعدودات

ففي أقل مما ينبغي من الوقت لكي أقص هذا الحادث، رفعت بندقيتي على كتفي، وأسندت فوهتها على رأس صخرة بارزة، وصوبتها إلى جبهة الأسد وهو ينهش جسم الفتاة، وأطلقت رصاصة وثانية، كان يمكن أن تصيب واحدة منهما رأس المسكينة أو رأس صديقها باكوبي!

ولكن الأقدار شاءت غير هذا فقد كنت موفقاً هذه المرة أيضاً، فاقتلعت إحدى الرصاصتين عين الأسد اليمنى، واستقرت الثانية في عنقه، وربض بجثته الضخمة على فريسته المهشمة!

قتلت الأسدين. ولكن الأسد الثاني، الذي أتعبنا وألقى الرعب في نفوسنا، قتل الفتاة عائدة التي أنقذناها من براثن النخاسين، ولم نتمكن من إنقاذها من مخلب لأسد.

بكاها الشباب الحزين بكاء مراً, بل بكيناها جمعنا لأنها كانت تتفانى في خدمتنا وتبذل فوق طاقتها لإرضائنا. وحفرنا في ذلك المكان حفرة دفناها فيها، وأقمنا على القبر كومة من الأحجار، وغرسنا حوله الرياحين والأزهار البرية.

وعزمنا على الرحيل، ولكن باكوبي رفض مغادرة ذلك الوادي الرهيب.

عبثاً حاولنا إقناعه، فقد تشبث بعناده وتمسك بعزمه، وكان يقول:

"قتلت أسدين. ولكل منهما لبؤة لأبد أن تقبل على هذا الغدير ولو بعد شهر أو سنة. سأظل هنا، لكي انتقم من اللبؤة لما الحقه الأسد بالمرأة التي أحببتها!"

وكنت اعرف عادات القوم وتقاليدهم وأخلاقهم، فتركت باكوبي يصنع ما يشاء. ورحلنا جميعاً عن المكان بعد أن تخلينا لرفيقنا عن كل

مكان ما استطعنا الاستغناء عنه من أسلحة ومؤونة وذخيرة. وكنت واثقاً من أن الزنجي سيقتل اللبؤة، أو يموت في عزلته بعيداً عن الناس؟

هذه هي القصة التي رواها لي مستر ميكلس على ظهر الباخرة في عرض البحر الأحمر، وقد ختمها قائلاً:

"سافرت بعد ذلك إلى الهند، ثم إلى جاوى وسومطرة، وعدت بعد سنتين إلى الحبشة، فالتقيت بصديقي باكوبي، وكان يقيم في مدينة هرر، يتاجر بالبن والحنطة، فأخبرني أنه قتل لبؤتين في ثلاثة أسابيع، ثم عاد إلى أوغندا، وربح أموالاً كثيرة وترك الصيد والقنص كما ترك الفلاحة والزراعة، وقال لي وهو يضحك: لقد انتقمت لعائدة. وتزوجت امرأة أخرى أطلقت عليها أيضاً اسم "عائد" ولم أعد فلاحاً الآن بل صرت "باتاكا" – ومعنى هذه الكلمة في لغة أوغندة "صاحب أملاك!"

أحلام الإيطاليين

في أثناء الحرب العالمية الأخيرة، كان الايطاليون يعتقدون أن مصر أصبحت ملكاً لهم. وقد أستأجر عملاؤهم القصور في القاهرة لإقامة الغزاة قبل أن يدخلوا الحرب!

في صيف ١٩٤٠.. الهجوم الألماني قد بدأ في الميدان الغربي، والبوادر تدل على أن الألمان سيكتسحون الانجليز والفرنسيين معهم بسرعة.. فإن هولندا، وبلجيكا، ولكسمبورج، قد انتهى أمرها والايطاليون في مصر لا يخفون ابتهاجهم، وايطاليا أم تدخل الحرب بعد، ولكنها على وشك الدخول.. فموسوليني لن يترك هتلر وحده التمتع بثمرة النصر غيره والاستئثار بالسالب.

جاءني في مكتبي، بوكالة "الشرق العربي" للأعمال الصحفية مهندس ايطالي معروف باتصاله الوثيق بالأوساط المصرية وكانت تربطنا أواصر صداقة قديمة العهد، وكان وجهه يفيض فرحاً وبشراً.. ودار بيننا الحديث الآتي:

– أهلاً وسهلاً.. فنجان قهوة؟

– لا. لا.. نحن في أهم من هذا.. أتريد أن تكسب بضع مئات من الجنيهات؟

- بضع مئات فقط؟ كلا! هذا قليل.

- ولكن في استطاعتي أن أتبعها بضعة آلاف!

- إذا كان الأمر كذالك، فلنتحدث..

- إذن، أطلب أي فنجان قهوة!

- هات قهوة يا مُحَمَّد!

- أن ايطاليا ستدخل الحرب

- وأمامنا أبواب كبيرة ستفتح على مصاريعها.

- ولكنني على عداء مقيم مع الدوائر الايطالية، ومواطنوك يهددونني كل يوم بالضرب والقتل!

- سأنقذك من الموت!

- الله يجبر خاطرك ويحفظ لك أولادك!

- والآن، إلى العمل.. أننا نريد أن نستأجر قصر الجزيرة، من آل لطف الله.. وهم أصدقاؤك..

- ومن يريد أن يستأجر القصر؟

– المفوضية الايطالية.. لان هذا القصر في نظرنا هو الوحيد الذي يصلح لإقامة الحاكم الذي سيعينه موسوليني في مصر، بعد أن يدخلها الايطاليون.

– ولكن ايطاليا لم تدخل الحرب بعد، وأنت تتحدث عن دخولها مصر؟

– ستدخل الحرب بعد أيام. واحتلال مصر من طريق ليبيا سيتم في أسبوعين.. وقد كلفت بأن أبحث عن أماكن تصلح مقراً للدوائر الرسمية.

– هذا تلطف منكم..

– لا تمزح: المسألة جدية أكثر مما تظن.. ونريد أيضاً قصراً آخر لإقامة حاكم القاهرة.

– وهل وقع اختياركم على قصر معين؟

– نعم، على قصر على فهمي كامل، المجاور لقصر لطف الله وسنضع يدنا بعد ذلك على معظم البيوت الأنيقة في الزمالك لان هذا الحي سيكون مقراً للحكام والقواد الايطاليين.

– ومن الذي سيقيم في قصر لطف الله؟

– جرازياني أو بادوليو، حسب اختيار الدوتشي.

– وفي قصر على فهمي؟

– الكونت ماتزوليني، وزيرنا المفوض بمصر، لأنه سيعين حاكماً للقاهرة.

– وما الذي تطلبه مني؟

– أن تكون وساطة خير بيننا وبين آل لطف الله ليتنازلوا عن قصرهم.. وبيننا وبين أصحاب قصر على فهمي كامل للغرض نفسه.

– وإذا رفضوا؟

– إذا رفضوا سيصبح مر كز هم حرجا.. لأننا سنستولى على القصرين بعد دخول جيشنا إلى مصر، ويصادرهما بلا مقابل!

– وهل هناك قصور أخرى تنوون استئجارها أو مصادرتها؟

– نعم. ولكننا لسنا في حاجة إلى وساطة، فقد اتفقنا مع أصحاب هذه القصور!

* * *

هذا هو الحديث الذي دار بيني وبين صديقي المهندس الإيطالي في صيف ١٩٤٠ وقد علمت منه أن آلية موسوليني متجهة إلى تعيين "هوجو" دروني مدير وكالة الأنباء الايطالية بالقاهرة ضابط اتصال بين

الحاكم الايطالي ورجال الصحافة.. ووعدني صديقي بأنه سيتوسط لدي داروني لمعاملتي بالحسنى بالرغم من السياسة التي سرت عليها في معاداة ايطاليا..

وقد اطلعت آل لطف الله الكرام على هذا الحديث، وضحكنا كثيراً.. ولكنني لم أفاتح أحد من أصحاب قصر على فهمي كامل بالأمر.

وقد دخلت ايطاليا الحرب. ولكنها لم تدخل مصر، ولم تتحقق الأحلام التي كانت تحتاج في رؤوس الذين باعوا جلد الدب قبل موته وها هو ذا السنوسي يقيم في قصر جرازياني، بدل أن يقيم جرازياني في قصر طف الله.

أما كتب هذه السطور، فقد ضاعت عليه. وعود بالمئات والآلاف التي مناه بها ذك الصديق الايطالي!

زوبعة في الصحراء

ما أروع حنان الأم إذا ما بلغ حدود التضحية بالنفس وتعداها؟

نادى الدليل: "لقد طلع سهيل فهيا إلى الرحيل!"

وسهيل كوكب سيار يهتدي به عرب البادية في الجزيرة فهو لهم بمنزلة البوصلة للبحار.

هببنا من نومنا مرغمين ونحن نفكر فيما عساه أن يقع لنا في تلك المرحلة الشاقة، في قطع ذلك البحر من الصحراء الذي لم يمطره منذ القدم ماء، ولم ينبت فيه كلأ، ولم يأهله بشر.

وكانت حرارة الجو تلك الليلة قاسية، مع أن جو الصحراء في الليل شديد البرد، مما آذن بقيظ لم نعهد له مثيلاً في مراحلنا السابقة.

ركبنا المهاري فسالت الأباطح بأعناقها وسرنا باسم الله والصدور منقبضة والعيون لم تزل مكتحلة بالنعاس..

طلعت الغزالة، بل قل هي ذكاء منذ الصباح، حراقة شديدة الوهج، وانتشرت أشعتها فجأة على الصحراء وإذا نحن في محيط لا قرار له من الرمال الناعمة والحصى المتراكمة التي كانت تؤلم المهارى في جريها.

وكان الدليل أمامنا مطرق الرأس طويل الصمت لا يكاد يجيب على سؤال نوجهه إليه، بخلاف ما عودنا في المراحل السابقة، فزاد انقباضه في انقباض صدورنا، وكان مرآه أشد على نفوسنا من منظر الصحراء الموحش.

نظرت إلى رفاقي من الأعراب فوجدتهم مثل الدليل انقباضاً ونظرت نظرة ألم وعطف إلى تلك الأعرابية التي تصحبنا مع طفلها على ذراعيها. فإذا بها حزينة مسيرة النفس.

فتشاءمت بنهارنا، وحاولت أن أوجه إليها الكلام، فولتني رأسها وانحنت نحو وليدها ترعاه.

سرنا.. سرنا طويلاً وقطعنا المفاوز الشاسعة...

وإذا بنا في رابعة النهار، وإذا بالشمس قد انتصفت في الأفق، ترمينا بأشعة دونها سهام الفولاذ المحمية بالنار، وإذا بالدليل يقبل على الأرض يفحصها بناظريه، ويلصق أذنه بالرمال يسترق السمع، وكأني به يستطلع أسرار الأرض.

ثم نهض وأخذ يجيل في الأفق نظرات تنم عن الذعر والرعب هممت بسؤاله وكأنه قد قرأ على وجهي وعلى وجوه رفاقي ما كان يجول في صدورنا جميعاً فالتفت إلينا وقال:

– الزوبعة.. الزوبعة..!

ثم انحرف بنا عن الطريق، وحث المهارى فجدت في السير نحو أخدود ضيق أوجدته العناية الإلهية في طريقنا لنحتمي فيه في تلك الساعة الرهيبة.

مرت دقائق معدودة، وإذا بتلال من الرمال قد حملتها الرياح الأربع تسفي بها إلى النقطة التي تركناها..

واجتمع على حربنا عنصران، النار والرمال: كانت نيران الشمس تحرقنا، وكانت رمال الصحراء تلج أعيننا وإذاننا وأفواهنا...

أصبحنا ونحن في رابعة النهار كأننا في ليل مدلهم حالك من ليالي الجحيم..

وإذا برفاقي وقد خ رج من صدورهم صراخ يأس وألم..

ذلك أن الجمل الذي كان يحمل الماء هوى على الأرض فتثقبت القرب وسال على الأرض ما كانت تحويه من ماء.

أسرعنا إليها مهرولين. لكن الرمال المحرقة امتصت الماء بأسرع من لمح البصر..

أدركنا اليأس جميعاً وتوقعنا الموت عطشا، إن نحن تخلصنا من الموت مطمورين تحت الرمال.

وأظلمت الدنيا في عيني وذكرت أهلي وماضي، وحننت إلى بلادي ومياهها وغيطانها. والمرء يبكي أوطانه وخلانه في أوقات المحسن ويأسف على ما أضاعه ويقدر ثمن الأشياء بعد فقدها.!

* * *

سكنت الزوبعة وعاد الجو إلى حالته الطبيعية. فاستأنفنا السير واجمين كأن على رؤوسنا الطير.

وإذا بالوليد قد أخذ في البكاء، وأطال في الصراخ على الرغم من هدهدة أمه المسكينة، ذلك أنه عطش فاستسقى، ومن أين لامه أن تسقيه إلا من دموع كانت تبل بها ثوبه الخلق!

وأنستنا روعة هذا المشهد ما بنا من جوى وألم وتذكارات كانت أشد على النفس مما نحن فيه!

ولما زاد الولد في بكائه وخشينا عليه، فطن الدليل إلى أمر يلجأ إليه العرب في أمثال هذه المواقف الحرجة. ذلك أنهم يقرون صدور الجمال فيستخرجون ما فيها من ماء ويشربونه.

وغني عن البيان أن الجمل يحمل في جراب في صدره مقداراً من الماء يدخره للشرب منه في مراحله الطويلة.

ولكن كان على الدليل أن يفكر في أن الجمل الذي سيبقره سيكون خسارة عظيمة علينا، وإنه ربما يحكم على راكبه بالموت عطشاً وجوعاً في تلك الصحراء المخيفة لأنه سيضطر إلى السير على قدميه فيتضاعف تعبه، ولم يكن لدينا من الجمال بديل.

فتشاور الأعراب فيما بينهم واستشاروني فقلت لهم:

– ابقروا جملي فقد طاب في افتداء هذا الطفل المسكين رحمة به وشفقة على أمه!

وقال كل منهم مثل قولي وتجلت بين الجميع عواطف المحبة والحنان والتآخي على الضراء في تلك البقعة الملعونة، البعيدة عن مواطن البشر.

وقر الرأي في النهاية على أن أحتمل ورائي فتى منهم على جملي وان نبقر جمله.

ففعلنا وسقينا الولد من ذلك الماء القذر وشربت الأم وشربنا ما تبقي وتذكرت عند ذلك قول بشار:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى * ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وجددنا المسير وداهمنا الظلام فبتنا ليلتنا على الرمال بجانب جمالنا. وقد تسلطت على مخيلتنا الهواجس والمخاوف فأبعدت عنا النوم. وقضينا تلك الساعات الطويلة نتلوى على فراش القلق والأشجان.

أما الأعرابية فاستغرقت في سبات عميق وقد ضمت ابنها إلى صدرها.

كانت تدعى "صالحة " وهي ابنة شيخ من مشايخ القبائل الوهابية اقترنت برجل من بادية الشام، ورزقت منه وحيدها "حسان" الذي كانت تحمله في تلك المرحلة المتعبة.

مات زوجها قتيلاً في الدفاع عن قبيلة أضافته وزوجته وابنه في أثناء هجوم قبيلة مجاورة، غنت مضارب مضيفه واستاقت مواشيهم بعد ما تشتت الرجال وقتل الزوج وهام كل على وجهه في الفيافي والبراري.

عزمت صالحة على العودة إلى أبيها في بطن جزيرة العرب. فطلبت إلى الأعراب الذين كانوا مع قافلتنا أن يصطحبوها ففعلوا وكانوا يحيطونها بالعناية المعهودة عند القبائل البدوية في مثل هذه الظروف.

عدنا في الصباح إلى مرحلة أشر من مرحلة الأمس، لأننا ضللنا الطريق. وكان الدليل يتميز غيظاً وأسى وأنفة، لأن الآدلاء يرون من العار أن يضلوا الطريق بقافلة وكل أمرها إليهم وعندهم أن يموتوا خير من أن يضلوا السبيل.

فبقرنا الجمل بعد الجمل في أيام ثلاثة، ظللنا فيها نضرب أخماساً بأسداس في عرض تلك الصحراء المتسعة التي ظنناها اللانهاية. إلى أن أصبحنا في اليوم الرابع ولم يبق من جمل نبقره لأننا كنا نعتلى كل ثلاثة منا جملاً واحداً. وصرنا نخاف أن نموت ميتة أشر وأفظع من كل ميتة أخرى.

أن القلم ليعجز عن وصف ما يشعر به الإنسان في مثل هذه الظروف.

ساورتنا الأفكان السود واستولى علينا الجزع إلى حد صرنا معه لا نفكر إلا في الموت القريب العاجل وكل منا يتصور ذلك الموت بشكل شيطان رجيم يكتسح الصحراء متقدماً مسرعاً نحونا، وبيده المنجل يحصد به الأرواح حصداً.

وكان يخيل إلينا أن كل حصاة من حصى الصحراء إنما هي جمجمة ميت قضى نحبه في ذاك الجحيم وان الرمال الناعمة التي كانت تتخطاها ألإبل ببطء وعناء، إنما هي رماد أجساد المساكين الذين طمرتهم التلال التي تتقاذفها الزوابع، وأن الرياح الهوجاء التي كنا نسمع لها فحيحاً هائلاً مرعباً، يشبه فحيح الأفاعي في وثباتها، إنما هي أرواح شهداء الصحراء تكتنفها من كل فج وصوب، منذرة بالويل والقضاء المبرم، تقص علينا بلغتها المرعبة التي لا يفهمها إلا كل من توغل في عرض الصحارى، ما عاناه أصحابها قبل مماتهم من عذاب أليم.

سرنا كالحيوانات الداجنة لا ندري إلى أين نذهب، يسوقنا الدليل حيناً أمامه ويقودنا وراءه كأننا قطيع من الماشية.

سرنا ولا أمل لنا إلا في العناية الربانية، وفي فطنة الدليل الذي كان يروح ويجيء كأن به مسامن الجنون يستطلع أسرار الفضاء ويحاول الاهتداء إلى الطريق.

عطش الولد في اليوم الرابع فعاد إلى بكائه المر. وعاد يتقلب كما ينقلب الجريح إذا أدخل في جرحه جمر النار. ولم يبق في عيني آلام من دموع تبذلها له فتنقع غلته أو تبل ظمأه..

وعطشنا جميعاً!

وكان الواحد منا يشعر بلسانه في فمه كأنه نصل خنجر محمي يحرق الحلق وبعث النار إلى المعدة.

وإذا بالأعرابية قد انتزعت من جراب معلق إلى جانبها خنجراً، فشدت برأسه على مقدمة ذراعها، واقتطعت عرقاً فتفجر الدم وأخذت تسقى وليدها وحبيبها من دمها المتدفق!

ولما فطنا إلى الأمر صعقنا وظللنا مبهوتين أمام هذا العمل الجليل، وسالت دموعنا إعجاباً، وأكبرنا ذلك التفاني، وأعظمنا طبيعة تلك الأم البدوية التي لم تزل على فطرتها الأولى، لم تمتد إليها يد المدنية والأنانية.

وكان الدم قد سال غزيراً من جرحها وكان الولد قد ارتوي وشبع فنام نوماً عادياً وأغمى على الأم لهفةً وحناناً وأسى وألماً.

فعمدنا إلى الجرح وضمدناه وعمدت إلى الولد فاحتملته أمامي واحتمل الأعراب المرأة. وكلنا معجب مكبر تلك التضحية وذلك الحب عند هذه الأعرابية البدوية.

وكأني بدم المرأة قد صعدت رائحته إلى عرش الخالق، فاستمدت لنا الرضا والرحمة. لأن الدليل أقبل علينا بعد ساعات قليلة فرحاً مسروراً، وقال وهو يشير إلى نقطة معينة:

"الواحة، الواحة، لقد بلغنا الواحة!" فتضاعفت قوانا، وتلاشت أحزاننا وآلامنا وأسرعنا في السير، وما هي إلا ساعة واحدة حتى بلغنا بقعة خصبة، وكأني بها جزيرة غناء وسط محيط خضم..

وآمنا على أرواحنا ووثقنا من الحياة!

رهبان بين الصخور والجماجم!

أنهم يعبدون الله في دير أشبه بركن الصقر، ويحتفظون بأعظم مجموعة من الهياكل البشرية!

قلت لصديقي ورفيقي في تلك الرحلة:

– والآن لنذهب إلى "البحر الميت" فإني لم أره من زمن بعيد.

فأجابني وهو يهم بالنهوض:

–كنت على وشك أن اقترح عليك ذلك. سنذهب إلى البحر الميت ولكننا سنعرج في طريقنا على دير لا أظنك تعرفه.

– أي دير هذا؟

– دير مارسابا.

– اسمع عنه الشيء الكثير ولكنني لا أعرفه.

– سنزوره إذن، ثم نذهب إلى البحر الميت في المساء فنراه في ضوء القمر.

وبعد دقائق كانت السيارة تنهب بنا الأرض نهباً، وتبتعد عن القدس وتذكرنا بالأجداد الذين كانوا يجتازون البراري والقفار على ظهور مطاياهم – تلك المطايا التي تغنى بها ابن الفارض في أشعاره. فقلت لصديقي:

– ما أبعدنا عن وصف رحلات الأجداد وعن سائق الإظعان الذي يطوي البيد طياً، فإن هذه السيارة يقودها سائق "التوربيدو" يطوي "الزفت" طيباً!

ولم يمض نصف ساعة حتى كانت السيارة تصعد بنا نجاداً وتهبط وهاداً. وقد أصبحنا في قفر لا دار فيه ولا نار، تحيط بنا صخور بركانية قائمة من كل صوب، ولا نسمع صوتا ولا صدى غير محرك السيارة..

ومر قطيع من الغنم يسوقه بعض الرعاة من العرب إلى حيث لا نعلم فقلت لصديقي:

– أي مرعى تجد هذه الخراف هنا وأين ينام هؤلاء الرعاة؟

– هذه الخراف تأكل الشوك والعليق. وهؤلاء الرعاة ينامون في المغاور وهي كثيرة في هذه السفوح وإن كنت لا تراها...

– حقاً أنني لا أراها...

– هذه المغاور كانت في قديم الزمان مأوى النساك والمتعبدين الذين كانوا يعتزلون العالم ويلجأون إليها ليقضوا حياتهم في الصلاة، لا يرون

أحداً ولا يراهم أحد. ودير مارسابا الذي نحن ذاهبون إليه منحوت كله في الصخر، أو هو بالأحرى عبارة عن مجموعة من المغاور يؤدي بعضها إلى بعض.

وقبل أن يتم رفيقي شرحه، بدا لنا عن بعد بناء غرب يخيل للرائي أول وهلة أنه قلعة شيدت هنالك لصد غارات الأعداء. فأشار إليها رفيقي قائلاً:

– مارسابا!

* * *

والدير كما قال صديقي مكون من مغاور كل مغارة منها غرفة قائمة بذاتها، يسكنها راهب من أولئك الرهبان الذين قطعوا علائقهم بالعالم وآثروا الحياة في ذلك المكان المنعزل الموحش أسوة بالقديس ساباً مؤسس ذلك الدير.

فمن هو القديس – سابا – أو مارسابا؟

هو رجل تقي ورع، ولد في سنة ٤٣٩ للميلاد، وأقام مدة من الزمن على شاطئ البحر الميت في فلسطين، ثم رغب في العزلة التامة فبحث عن مأوى يأوي إليه في ذلك الجبل الموحش، وأفضى به البحث إلى العثور على هذه المغاور فاتخذ مغارة منها مسكناً له، وأقام فيها طول حياته وتوفي هناك

وهو في العقد العاشر من عمره، أي في نحو الرابعة والتسعين على ما يقول رهبان الدير.

وقد لحق به فريق من الرهبان الراغبين في التنسك مثله فسمح لهم بالإقامة في المغاور الأخرى، ولما وافته منيته كان عدد النساء قد بلغ المئات. ثم تكاثر عددهم بصورة مدهشة فبلغ الآلاف بعد وفاة مؤسس الدير، وأطلق الرهبان على تلك المغاور اسم القديس البار الذي قادهم إليها، وعرف الدير منذ ذلك الوقت باسم "مارسابا".

وفي سنة ٦١٤ للميلاد تدفقت جيوش الفرس على الأرض المقدسة وذبح الجنود كل من وقع تحت أيديهم من الرهبان، ويؤكد سكان الدير أن أولئك الفرس ذبحوا منهم في تلك السنة المشئومة عشرين ألف راهب!

وقد أشار أحد الرهبان – وكان يطوف بنا أرجاء الدير – إلى مغارة صغيرة على جدرانها طبقة كثيفة من الدخان المتصاعد من الشموع وقال: "هذه هي المغارة التي أقام فيها القديس سابا مؤسس هذا الدير منذ ألف وخمسمائة سنة!"

– ولكن تعالوا معي إلى المغارة الكبيرة التي تثبت للعالم أن ما يقوله الرهبان عن تلك المذبحة الهائلة صحيح لا شك في صحته، أسرعوا..

فأسرعنا. وما هي إلا دقائق معدودة حتى وجدنا أنفسنا في مغارة يشعر الداخل إليها بقشعريرة تسري في جسمه..

وجدنا أنفسنا في تلك المغارة أمام أكوام مكدسة من العظام والجماجم..

وقال دليلنا الراهب:

- بين هذه الهياكل البشرية المبعثرة جماجم وعظام أولئك الشهداء الذين ذبحهم الفرس في أوائل القرن السابع الميلاد، ونحن نعيش في هذا الدين بين الصخور الكالحة المحيطة بنا وهذه الجماجم التي تذكرن الماضي البعيد، ورفات "مارسابا" الذي ترون ضريحه هناك في تلك المغارة التي أقام فيها وجعلها نواة لهذا الدير.

فقلت للراهب:

- أليس في ديركم يا حضرة الأب منظر آخر يبعث في النفس شيئاً من الفرح ويزيل عنها الانقباض؟ أرجو أن تذهب بنا إلى مكان آخر بعد أن أوقفتنا أمام المغاور المظلمة والأضرحة الكئيبة والجماجم المتراكمة.

- تعالوا لزيارة الكنيسة!

الكنيسة! إنها تحفة من أبدع التحف، ولا يتصور الزائر في بادئ الأمر أنه سيجد في ذلك الدير العجيب كنيسة تضم من روائع الفن ونفيس الجوهر ما تضمه كنيسة دير مار سابا التي يطلق عليها الرهبان اسم "كنيسة البشارة" إشارة إلى زيارة الملاك جبريل لمريم العذراء مبشراً بميلاد المسيح عليه السلام.

وقبل أن تنصرف من الدير قال لنا الراهب مشيراً إلى شجرة قديمة:

– انظروا إلى هذه الشجرة. لقد غرسها مارسابا بيده عندما اتخذ هذه المغارة مأوي له ومسكناً!

والشجرة قديمة حقاً ولكن اعتقاد الراهب بأنها غرست في ذلك المكان منذ ألف وخمسمائة سنة فيه شيء من السذاجة.

ولكننا لم نشأ أن نجادله في ذلك، وأشرت إلى أزهار زاهية نبتت بين الصخور وسألت:

– وهذه الأزهار. كيف نبتت بين الصخور؟

فأجابني الراهب قائلاً:

– أننا ننقل التراب من الخارج ونملأ به جميع الشقوق التي نجدها في الصخور، ثم نبذر بذورنا فيها! فأكبر تلك الهمة القعساء التي تنبت بين الصخور نباتاً وأزهاراً وأكبرنا أولئك الذين يعيشون بين الصخور والجماجم وعلى مقربة منهم جواهر وكنوز تقدر بالملايين!

مسلمون شاراتهم الصليب

هذه صفة من رحلة في الصحراء أوشك فيها الكاتب أن يأكل لحم الحمير!

سألت أربعة من أولئك العربان سؤالاً واحداً. "لماذا يسمونكم، أو تسمون أنفسكم عرب صليب؟ وما أصل هذه التسمية؟"

وأجاب كل من الأربعة جواباً يختلف عن أجوبة الثلاثة الآخرين!..

قال الأول: "أسمنا عرب صليب نسبة إلى الصليب لأننا من أصل مسيحي!"

وقال الثاني: "أن هذا الاسم تحريف كلمة صليبي، لأن أجدادنا من الصليبيين!"

وقال الثالث: "كان ثنا جد يدعي صليب!" ولفظ هذا الاسم بضم الصاد، وفتح اللام، وكسر الباء بتشديدها.

أما الرابع، فقد هز رأسه قائلاً: "أعرف أن اسمنا عرب صليب. أما لماذا، فلا أدري!"

وعرب صليب عملية استفهام كبيرة في صحراء العراق وبيداء الشام.

ويلفظ اسمهم بضم الصاد لا بفتحها، وقد مررت بينهم مروراً في البراري التي كانوا في ذلك الوقت ضاربين فيها خيامهم السوداء الصغيرة الحقيرة، ودونت عنهم أشياء، وفاتتني بلا شك أشياء..

أنهم دائمو التنقل على حدود العراق وسوريا، يشاهدون في كل مكان، ولا يستقرون في مكان فهم صورة حية للبدو الرحل، وكلهم فقراء معدمون، لا يهتمون بالزراعة على الإطلاق، ولا ينصرفون إلا إلى زراعة بعض البقول إذا استقر بهم المقام بضعة أسابيع أو شهور في واحةٍ أو وادٍ، وليسوا من "أهل الإبل"، لأنهم لا يملكون منها غير القليل، ولا يعنون بتربيتها، وليسوا من "أهل الغنم" لأن ما لديهم من الخرفان العجاف يعد على أصابع اليد، فهل تعلم ما هي هوايتهم، وأين تحصر عنايتهم؟

أنهم يربون الحمير! الحمير الأصيلة المؤصلة، التي يباهون بها كما تباهي القبائل الأخرى بإبلها وخيولها، ولحميرهم شهادات بنسبها مثل أصائل الخيل تماماً، يبيعون منها للعشائر البدوية والسكان القرى والمدن عدداً كبيراً كل عام.

ولست أدري إذا كان الحمار القبرصي يضاهي الحمار الصليبي في جماله وسرعته وذكائه!

وإذا شاخ حمار، أو مرض أو أصيب بعاهة، فإنهم ينحرونه ويأكلون لحمه!.. وقد دعيت في رحلتي تلك إلى تناول نصيبي من مأدبة كأن لحم الحمار فيها موضع تفنن في الطهو، وتقدير في تذوق الألوان المختلفة:

الثريد، والمشوي، والمسلوق! وكنت في جولات سابقة قد عرفت طعم لحوم غريبة عجيبة، حلوة، وملحة، ومرة، وطرية، وقاسية: لحم الجمال كبيرها وصغيرها، ولحم الأرانب. والخرفان البرية، ولحم القطط، والغزلان، والجراد المقلي بالسمن أو بالزيت!.. فقلت في نفسي: "ولم لا؟ لنشرب الكأس حتى الثمالة، ولنذق اللحوم حتى الحميري منها!"

وأخذت قطعة بمقدار بندقة، أو لوزة، أو جوزة، وأوشكت أن آكلها، بل هممت بابتلاعها، ولكن الفم مجها، وقلت في نفسي مرة أخرى: "ليقف الفضول عند هذا الحد" ولكنني ندمت فيما بعد، لأنني ضيعت فرصة أدون فيها الفارق بين لحم الحصان ولحم الحمار، وهل هذا دون ذاك، أم ذالك دون هذا؟

وأكد لي رفاقي، وقد أكلوا وشبعوا، أن لحم الحمار، الرضيع ألذ من لحم الضأن.. وليس عندي ما يثبت أنهم غير صادقين!

ولكن أغراب ظاهرة عندهم،الشارة التي أجمعوا على استعمالها، والتي توقعك في حيرة إذا أردت البحث عن أصلهم ونسبهم. وما تلك الشارة غير الصليب!

والصليب الذي يرسمونه في كل مناسبة يشبه الصليب الأحمر الذي كان الجنود الصليبيون يضعونه على صدورهم ويرسمونه علي دروعهم وأسلحتهم. وقد تكشف عن زند بدوي، أو بدوية من عرب صليب، وقد تنعم النظر في حمار من حميرهم فيبدو لك أنهم طبعوا شارة الصليب

بالحديد المحمي بالنار على ظهره، أو على إحدى قوائمه، وإذا تبينت في الصحراء على الأرض، أو بين الصخور أو على مقربة من عين، أو بئر، أو غار علامة، ما بشكل صليب، فاعلم أن ركبا من عرب صليب قد مر من ذلك المكان، وترك فيه تلك العلامة، لغة تفاهم بينه وبين ركبان سابقة، أو لاحقة!..

وظاهرة أخرى تلفت النظر أيضاً، ولا تقل غرابة عن الظاهرة، المسابقة: أن بين النساء الصليبيات شقراوات، أعينهن زرقاء، وهذا نادر، بل يكاد يكون معدوماً عند عربان الصحراء على الإطلاق!

فبشرة البدويات عادة سمراء، أو فاحمة، وشعرهن أسود، وعيونهن سوداء.. فهل تعد هذه الظاهرة، مع ظاهرة الصليب، والاسم الذي عرف به أولئك البدو، من البراهين التي تثبت أن عرب صليب بقية باقية من جماعات الصليبيين وأن أجدادهم نفروا إلى البرية، أو الجبال، واعتنقوا الإسلام، وعاشوا عيشة البداوة، فضاع نسبهم، ولكنهم ظلوا يؤلفون بين القبائل العربية الأخرى أسرة كبيرة مستقلة؟

أم انهم بقية باقية من الغسانيين، العرب النصارى، تركوا دينهم الأول وظلوا محتفظين بتلك الشارة التي يستعملونها اليوم كعلامة للتعارف؟

لقد بحثت في كتب المؤرخين فلم أجد فيها ما يشفي الغليل ويزيدني معرفة بأصلهم ونسبهم، ولكن ما الفائدة من ذلك، ما دمت قد زرتهم زيارة عابرة، فألفيتهم كرماء، لطفاء!

القدس

مدينة الحجارة.. والذكريات.. والأديان

لو سألت الذين طافوا في أنحاء العالم، ما هي أغرب المدن في نظرهم، لأجابوك – في اعتقادي به أنها مدينة القدس!

أنا كثير التجوال لا تحملني الوهاد إلا لتقذف بي إلى النجاد.. وقد قمت برحلات كثيرة في الأقطار الشرقية – ولاسيما العربية منها – ولكن صدري لم يحمل أثراً أقوى وأجمل من ذلك الأثر الذي تركته فيه زيارتي لأورشليم، أو بيت المقدس، أو القدس الشريف، اختر لها ما شئت من الأسماء..

هي المدينة التي تقدسها الأديان المنزلة وهي التي تصبو إليها الأنظار وتخفق لها القلوب من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق..

ففيها بني س ليمان هيكله العظيم

وفيها صلب المسيح

وإليها أسرى بمحمد

فهي المدينة التي يقدسها اليهود والنصارى والمسلمون

وهي المدينة التي تطاحنت الجيوش تحت أسوارها، وأهرقت الدماء في سبيل الاستيلاء عليها، وهي المدينة التي لا تزال إلى الآن تثير المحبة والضغينة على السواء.

وأورشليم مدينة الحجارة، فالحجارة فيها هي التي تثير المعاني السامية وتضرم أحياناً نيران التعصب في النفوس.

فأسوار أورشليم من أقدم الأسوار في العالم وقد اشترك في تشييدها اليهود والمسيحيون والمسلمون. وكل حجر من حجارة تلك الأسوار قد رصفت جوانبه بدم يهودي أو بدم مسيحي أو بدم مسلم! وتحت كل شبر من تلك الأسوار امتزجت دماء هؤلاء بدماء أولئك.

وحجارة المسجد الأقصى، وحجارة مسجد عمر القائمة على الصخرة المشرفة تثير الشجون وتنتقل بالمرء من هذا العالم إلى عالم آخر. إلى عالم الوحي والخيال، إلى عالم الآخرة الذي ينسينا ضغائن هذه الدنيا الفانية.

وأحجار كنيسة القيامة المشيدة على المكان الذي دفن فيه المسيح، تثير ذكريات عهد انتقل بالعالم من قوانين قائمة على التعصب والاستبداد إلى عهد أراد المسيح أن تقوم فيه قوانينه على المحبة والتسامح. وهناك حجارة أخرى.

حجارة يعثر بها المار في أزقة أورشليم في كل خطوة يخطوها فهذا حائط خان صلاح الدين الذي كان ينزل فيه المسافرون من كل دين

ومذهب في حماية بطل حطين.

وهذا جدار باق من عهد عمر بن الخطاب وكان من قبل سوراً عالياً يحبس وراءة المصابون بالبرص لكيلا تنتقل عدواهم إلى الأصحاء.

وهذا الحائط الشاهق الذي ذابت حجارته على مر الأعوام من تقبيل الشفاه ولمس الأيدي هو حائط المبكى... هو حائط البراق... هو الحائط الذي يعتقد اليهود أنه البقية الباقية من هيكل سليمان الحكيم.

وإذا دخلت الكنائس التي شيدت للصلاة والتي يجب أن تكون مرتعاً للسلام والوئام – وجدت فيها العراك قائماً طول النهار. لا حول مسألة دينية أو مبدأ لاهوتي، بل حول الحجارة التي تتألف منها أرض الكنيسة، فإن الطوائف المسيحية وزعت مناطق نفوذها في داخل الكنائس على حسب البلاط المصفوف، فلهذه الطائفة خمس بلاطات، ولتلك أربع، والثالثة عشر بلاطات!

وفي الطرقات لا تجد إلا الحجارة المنقوشة المحاطة بأسوار حديدية فهذه هي المرحلة الفلانية من مراحل درب الصليب... وأمام هذا الحجر وقفت مريم العذراء تودع أبنها وبجوار هذه الصخرة تقدم أحد، أتباع المسيح وحمل الصليب عن سيده... وفوق هذه الحجارة المتراصة هناك جلس عمر بن الخطاب ليستريح في ثناء طوافه الأول داخل المدينة...

وهكذا لا ترى غير أحجار وصخور وبلاط وجدران لكل منها معنى ومغزى وشرح وتفسير!

* * *

وقد أخطأ من أدعى أن برج بابل زال من عالم الوجود بعد هدمه وتخريبه! فقد انتقل من "بين النهرين" إلى التلال السبعة التي تقوم عليها مدينة بيت المقدس. فإلى عهد قريب، وقبل أن تحل بفلسطين محنتها المفجعة، كانت جميع الجنسيات ممثلة في داخل المدينة وكنت، إذا سرت في طرقاتها وأزقتها، تظن نفسك في مهرجان أو "كرنفال" تنكر فيه الناس في مختلف الأزياء، وراحوا يرطنون بمختلف الرطانات! وكنت ترى العربي يجاور الغربي. وكنت ترى الفرنسي والانجليزي والألماني والايطالي واليوناني واليوغسلافي والروسي، وغيرهم وغيرهم أشكالاً وألواناً، هذا مسيحي جاء يحج إلى كنيسة القيامة، وإلى مهد المسيح وحده، وذاك يهودي جاء يلطم ويذرف الدمع أمام حائط المبكى أو بطرق رأسه على حجارته.

وأما العربي فإنه ممثل في مدينة الأديان أصدق تمثيل فالسوري والحجازي والمصري واليمن والعراقي والمغربي والحضرمي وغيرهم يتبادلون التحيات بلهجاتهم المختلفة وإذا أردت أن تتمرن على جميع اللهجات العربية واللغات الأوربية فإن أورشليم خير مدرسة يمكنك أن تتخرج فيها؟

وقد تكون أورشليم المدينة الوحيدة التي لا يمكنك أن تروح وتجئ فيها إلا على قدميك. فالمدينة القديمة أورشليم الحقيقية التي تكتنفها الأسوار ليس فيها شارع واحد أو زقاق واحد تمر فيه السيارة بأمان وسلام... ولن أنسى ذالك اليوم الذي حتمت فيه على سائق سيارتي أن يذهب بي إلى إدارة جريدة "الجامعة العربية" ثم إلى مكتب "المؤتمر

الإسلامي" فقد أجابتني الرجل إلى طلبي و هو يدمدم ويزمجر، وعذرته فيما بعد لأن السيارة اضطرت عندما أرادت أن تعود أدراجها – أن تمشي إلى الوراء – أو بالمقلوب إذا شئت مسافة لا تقل عن ثلاثمائة متر لكي تجد المساحة الكافية للدوران!

هذا إذا وجدت أمامك طرقات لا سلالم فيها ولا صعود ولا هبوط.. فأورشليم كما قلت لك مشيدة على سبعة تلال. وشوارعها لذلك مدرجة لا يمكنك أن تسير فيها سيراً بل يجب أن تصعدها صعوداً أو تنزلها نزولاً.. وخير وسيلة للانتقال فيها هي السير على الأقدام.

* * *

وكثيرون هم الذين يستغلون شعور الناس نحو مدينه أورشليم فهناك التجار، وبعض رجال الدين الذين يمارسون تجارة خاصة هذا يقدم لك علبة من الخشب قائلاً إنها من خشب مقدس.. وذاك يبيعك سبحة يقول إن حباتها مصنوعة من حب الزيتون ومن جل الزيتون الذي بكى فيه المسيح.. ولكن لو كان أولئك التجار صادقين، وكانت جميع سبحهم من حب الزيتون بأورشليم لوجب أن يكون في جبل الزيتون آلاف من الأشجار التي تطرح كل سنة أطناناً من الحبوب.. مع أن جبل الزيتون ليس فيه في بضع عشرات من الأشجار الجافة!

وقد قطعت الطريق الذي قطعه السيد المسيح حاملاً صليبه واسمه "درب الصليب" ويعرف المسيحيون أنه مؤلف من ٢٤ مرحلة فأوقفني

الذين رافقوني ٢٣ مرحلة!

وقادني أربعة من الإدلاء إلى أربع مغاور صغيرة – أو بالحري إلى حفر خيل إلى إنها حديثة العهد بالحفر – وأكدوا لي جميعهم أن هذه الحفرة هي التي صلي فيها المسيح صلاته الأخيرة".

زرت مرة كنيسة القيامة وسط الضوضاء التي كان ثمرها ثلاثة من الكهنة لأن أحدهم تخطى "بلاطة" جاره ..

وعندما خرجت من الكنيسة وسرت بضع خطوات في السوق المدرجة سمعت أسطوانة تصيح بنغمة بينها وبين النشاز درجة:

"ماري! ماري! وكل الناس بتحب مراي!

"وبتحلف بحياة ماري!

"وما بتحلم إلا بماري!

"ماري! ماري!

"ما في عندي كبير وصغير

"بتحب المصاري كتير!

"ماري! ماري! وكل الناس بتحب ماري!"

هذه مذكراته دونت قبل أن تصبح مدينة بيت المقدس مشطورة إلى

شطرين. وقبل أن تتحول فلسطين إلى أندلس جديدة. وقبل أن يخسر العرب ما خسروه بسبب تفريطهم في حقوقهم، أو إهمالهم في المحافظة عليها.

وإلى القارئ ما دونته في مذكراتي، بعد زيارة القدس في سنة ١٩٣٦، أي قبل قيام دولة إسرائيل باثنتي عشرة سنة:

دخلنا حي المغاربة، وسرنا في تلك الطرق الضيقة، تصعد سلالم هناك، ونهبط سلالم هناك، ونمشي مسرعين تارة وتلتصق بالحائط تارة أخرى لكي نفسح الطريق الحمار يحمل على ظهره الصغير عشرة صناديق كبيرة..

وها نحن أمام المنفذ الوحيد المؤدي إلى حائط المبكى، ذلك المنفذ الضيق الذي يمكنك أن تلمس جانبيه إذا بسطت ذراعيك والذي تقدمت إحدى الجمعيات اليهودية طالبة شراءه من الأوقاف الإسلامية بمبلغ طائل من المال، فرفض طلبها.

وقد قمت بعملية حسابية بسيطة، فوجدت أن المال الذي عرضته الجمعية اليهودية لشراء ذلك المنفذ لو اشترت به الأوقاف الإسلامية ذهبًا وصبت الذهب صحائف لتمكنت من رصف المكان بها بدل الحجارة التي تطؤها الأقدام في طريقها إلى الحائط التاريخي.

لكن لذلك المكان ثمناً غير الثمن المادي الذي يقع تحت الحراس. إن له ثمناً تاريخياً وأدبياً ودينياً، فكلا الفريقين المتخاصمين يرى على الحائط والطريق المؤدية إليه مالا يقدر بمال، وهذا ما يجعل المسلمين يرفضون

البيع، وتجعل اليهود يزيدون في الثمن، فيعود المسلمون إلى الرفض من جديد.

هو ذا المبكى.

جدار واحد، واحد فقط، قائم على ارتفاع شاهق، نصفه الأسفل مكون من حجارة ضخمة ذكرتني بحجارة الأهرام، ونصفه الأعلى من حجارة أصغر من الأولي حجماً، وأحدث منها وضعاً هناك.

يقول اليهود إن ذلك الجدار هو البقية الباقية من الجزء الغربي الهيكل سليمان الحكيم. وهم يهرعون إلى هناك ذرا فات – ووحدانا فيذرفون الدموع السخينة، ويرسلون التأوهات الحارة، طالبين من الله أن يعيد لإسرائيل ملكه وسلطانه، وإلى "شعب الله المختار" عزه ومجده!

ثمانية أشخاص رأيناهم هناك ثلاثة منهم يجلسون القرفصاء عند نهاية الجدار، وفي أيديهم التوراة يقرؤونها بهمهمة يخيل إليك معها أنهم نائمون يغطون في نومهم، وثلاثة يقفون أمام الجدار وقد التصقت وجوههم بحجارته ويقرعون جباههم عليها، وفي أيديهم أيضًا كتب لا أدري إذا كانت توراة أو غيرها من كتب الصلاة. وواحد يروح ويجيء رافعاً كفيه إلى السماء يتمتم بكلمات عبرية لا يفهمها غير أبناء قومه. وأخيراً رايت الشخص الثامن وقد وقف أمام منضدة قديمة. قديمة جداً، يخبل إليك وأنت تنظر إليها إنها من أثاث الهيكل القديم و إنها رافقت الجدار المتهدم منذ بدء عهده إلى الآن، وعلى تلك المنضدة صندوق من الزجاج ليس أحدث منها عهداً،

وفيه شموع وزيت .. للبيع!

فالمصلون الباكون أمام الجدار يبتاعون من ذلك "الأخ" البولوني أو الشلختي شمعة يضيئونها في أثناء الصلاة ثم يعيدونها إليه مع الأجر المألوف، أو سراجاً يشعلونه ويتركونه نذراً لله في ثقب من ثقوب الحائط الكثيرة.

ولذلك السراج اسم عبري معناه "سراج الروح" أو "قنديل النفس" أو مثل هذا.

وكثيرون من الباكين يحيون سرجهم من بيوتهم، أو يحملون معهم فتائل من القطن الشرب بالزيت، فيضيئونها في أثناء بكائهم ثم يعودون بها من حيث جاءوا.

طفت في أرجاء المكان ووقفت وراء كل من المصلين الباكين على حدة أصغى إلى صلواته واسمع تأوهاته وتنهداته، فلم التفت إلى أحد منهم، ولم يكترث بي أحد، كأنني لم أكن هناك وكأن القوم في عالم غير هذا العالم!

ولكنني أبيت أن أغادر المكان دون إن أتحدث إلى أحدهم، فانتظرت أكبرهم سناً، أو الذي خيل إلى أنه أكبر الجميع لأن لحاهم البيضاء وشعورهم المسترسلة على أكتافهم كانت تجعل معرفة أعمارهم مستحيلة.

في الرجل في مكانه صامتاً يبكي بعد إن طوي كتابه بين يديه. ثم هرول نحو المنفذ الوحيد الذي لا خروج ولا دخول إلا منه. فاعترضته في

طريقه وخاطبته بالعربية قائلاً:

- هل تسمح لي بأن ألقي عليك بعض الأسئلة؟

فنظر إلى الرجل بعينين غائرتين.

وهمهم بكلمات لم أفهم معناها. فتدارك أحد الرفاق الأمر وقال لي:

- يظهر أن الرجل يجهل العربية فقد أجابك بالعبرية.

- كيف يجهل العربية وهو يعيش في هذه البلاد؟

- كثيرون منهم مثل هذا الرجل. وبما أنهم يعيشون في أحبائهم ولا يختلطون بسواهم من الناس، ففي استطاعتهم إن يستفتوا عن لغة البلاد ويتفاهموا بلغتهم.

فطلبت من الشيخ وقد لاحظت بين أجفانه دموعاً لم تجف بعد، إن يجيب على أسئلة قليلة أود إلقاءها عليه. وكان رفيقي الذي يحسن العربية ترجماناً بيننا:

- كم سنك الآن؟

- ثمانون سنة وهل أنت من هذه البلاد أم مهاجر إليها.

- وادث في يافا. ولكن الذين لم يولدوا في هذه البلاد بينما هم يقيمون فيها الآن ليسوا مهاجرين بل من أبناء البلاد.

فقلت في نفسي: أمام هذا الجواب، أن الرجل سيدخل معي في حديث عن اليهود وحقوقهم في "أرض الميعاد" وأنني ما طابت منه حديثاً في موضوع كهذا فأسرعت في إلقاء السؤال الثاني:

– وهل قضيت حياتك كلها في القدس؟

– نعم. جئت اليها وانا في التاسعة من عمري.

– ألم تغادرها منذ ذلك الوقت؟

أبداً! لم أخرج وراء أسوارها!

– وتزول المبكى دائماً؟

– في الأسبوع ثلاث مرات.

– ولم تنقلع عن زيارته لسبب من الأسباب؟

– لم تنقطع إلا لسبب المرض من وقت أي آخر ولكنني كنت أعوض ذلك في الأسابيع التالية في عدد زياراتي: ثلاث مرات في الأسبوع!

– وأي أمل تعلل به نفسك؟

– الآمال كثيرة.

– هل تعتقد إن الهيكل سيشيد من جديد هنا؟

– إن ما قاله الله لا بد إن يتم إن عاجلاً وأن آجلاً.

- وكيف تعيش؟

- هذا يعنيني وحدي.

- وهل لك أبناء لا؟

- ثمانية.

- أين هم؟

- هم في انتظاري وأنت تستوقفني بدون مناسبة!

- قال الشيخ هذا وابتعد وهو يتكئ على عصاه ويهز رأسه.

وتناولت ورقة من جيبي وقمت بالعملية الحسابية الآتية: الرجل عمره ٨٠ سنة.

فإذا كانت السنة مؤلفة من ٥٢ أسبوعاً فإن السنوات الثمانين تكون مؤلفة من ٥٢×٨٠= ٤١٦٠ أسبوعاً.

والرجل يزور المبكى ثلاث مرات في الأسبوع. فيكون قد زاره في السنوات الثمانين ٤١٦٠×٣= ١٢٤٨٠ مرة!

مجلة الجميع

الدكتور في خدمة الجميع "يهود يكرهون اليهود"

يقول السامريون أن الجنة وقف عليهم دون سواهم، فمن هم السامريون؟

أن أول سؤال ألقيه على أصدقائي، كلما نزلت مدينة نابلس العربية العريقة، هو: "كيف حال السامريين؟".

والسامريون يهود أعداء اليهود، بالرغم مما في هذا من غرابة.

وقد عرفتهم وزرتهم أكثر من مرة في مدينتهم نابلس حيث لهم حي خاص بهم لا يسكنه سواهم من الناس. ولكن معرفتي السابقة بهم لا تمنعني من زيارتهم والتحدث إلى كاهنهم كلما سنحت الفرصة وروت نابلس نزيلاً أو عابر طريق.

لا يزيد عدد السامريين عن مئتي شخص، الرجال بينهم أكثر من النساء، وهذا ما يبعث الأسى إلى قلوبهم لأنه ينذرهم بالاضمحلال والانقراض، إذ أن السامري لا يجوز له إن يتزوج غير سامريه، والسامرية لا يجوز لها إن تتزوج غير سامري. والنساء المتزوجات لا يلدن كثيراً فالتناسل ضعيف عندهم. وقد يرجع هذا الضعف إلى أن الدماء التي تجري في عروقهم لم تتجدد ولم تزدد قوة بامتزاجها عناصر أخرى تنقلها إليها دماء

الشعوب التي عاش السامريون بين ظهرانيها.

فالسامريون لا تربطهم رابطة مع سواهم من الناس. بل أن اليهود أنفسهم، والسامريين منهم، ينظرون إلى هذه الطائفة بعين الحذر والاحتقار، كما أن السامرين من ناحيتهم ينظرون إلى اليهود نظرهم إلى شعب ضال جنح عن السبيل السوي وحاد عن دين الله الحق. فهم في عرف أنفسهم الطائفة الوحيدة التي حافظت على دين إسرائيل محافظة لم تشبها شائبة على مر الأجيال. وهم وحدهم حائزون علي رضي الله من دون خلقه أجمعين. وهم وحدهم المحتكرون الجنة في الحياة الأخرى فقد سبقهم إليها أخوانهم الذين ماتوا على دين الله وفي السيل القويم. وهم اللاحقون بهم إليها دون بقية البشر؟

غير إن الوقائع التاريخية تدل – بعد استئذان السامريين – على إن دماء غريبة جرت في عروق أجدادهم الأقدمين. فإن التاريخ يذكر أن طائفتهم إنما هي خليط من اليهود ومن البابليين الذين أوفدهم الملك سلمنصر من بابل إلى "سيشم" لكي يحملوا اليهود على القيام بشعائرهم الدينية طبق التقاليد الوثنية. وطائفة السامريين هي سلالة أولئك البابليين الذين اختلطوا بفريق من اليهود واستوطنوا فلسطين في القرن الخامس قبل الميلاد.

واليهود الذين اختلطوا بأولئك البابليين وأصبحوا يؤلفون معهم – شعباً واحداً وأقاموا في سيشم أو شكيم. وهي التي سماها الرومانيون فيما بعد نيابوليس أو المدينة الجديدة. وقد تحرف اسمها مع الأيام فصار الآن

"نابلس".

وتحيط بنابلس سلسلة من الجبال المنيعة المرتفعة، يعرف أحدهما من قديم الزمان باسم جبل "جرزيم" وهو الذي شيد السامريون عليه منذ قرون هياكلهم ومعابدهم ولم يبق من ذلك كله سوى آثار مبعثرة. غير إن السامريين لا يزالون إلى الآن يؤدون فروضهم الدينية ويقومون بشعائر طائفتهم على قمة ذلك الجيل المقدس، حيث يجتمعون كباراً وصغاراً، ويقدمون الحمل ذبيحة على هيكل الرب، كما كان يفعل أجدادهم من قبل.

ويعيش السامريون في نابلس على هامش حياة السكان فليس هناك نوع من الاختلاط بينهم وبين المسلمين والمسيحيين ولا يأكل السامري لحم حيوان ذبحه المسلم أو المسيحي أو اليهودي. فان لهم جزارهم ولهم بائع اللبن والبيض ولهم موردون "منهم وفيهم" يقومون بتموينهم في كل ما يحتاجون إليه في حياتهم ومعيشتهم. وهم يتنجسون من كل ما يخص سواهم من الناس.

والسامريون يعبدون الله طبعاً، ورسولهم هو موسى ولكنهم يكرهون اليهود والمسلمين والنصارى، وقد يكرهون اليهود أكثر مما يكرهون أبناء الطوائف الأخرى. لأنهم يدعون إن اليهود قد شوهوا شريعة موسى وحرفوها ولم يحتفظوا بها نقية كما وضعها نبيهم. أما هم، فقد احتفظوا بها كما أنزلت على موسى الكليم فأصبحوا محتكرين للحقيقة كلها، الحقيقة التي لا تتجزأ والتي يجب ألا يعتورها تغيير أو تعديل!

وعندما يقوم السامريون بمراسيم دينهم على جبل جرزيم، يفعلون ذلك في العراء وفي الهواء الطلق، أمام خيمة ينصبونها لهذا الغرض، ويرتدون في أثناء الصلاة أثواباً ناصعة البياض. ولا يزعجهم إن يلتف الناس حولهم متفرجين لأنهم يقولون أن الصلاة ليست بمعرة أو عيب ولا لوم على من يقوم بها أمام الناس. وسكانه نابلس يصعدون إلى الجبل عندما تحل مواسم الصلاة عند السامريين. ويحيطون بهم متفرجين، بينما يقوم البناء تلك الطائفة الغريبة بفروض دينهم كأنهم داخل هيكل مغلق الأبواب موصد النوافذ.

سألت احدهم، وكان ذلك في عهد الانتداب البريطاني:

– هل أنتم على وفاق مع سكان البلاد؟

– على وفاق تام. فإنه يحترمون معتقداتنا ويحموننا في أيام الاضطرابات ولا يجعلوننا نشكو من شيء.

– ألا تنظرون بعين القلق إلى المستقبل إذ إن طائفتكم سائرة إلى الانقراض؟

– هذه حالنا ولكن ما العمل؟

– لماذا لا تتزوجون من الطوائف اليهودية الأخرى؟

فنظر إلى الرجل بشيء من الغضب، وأجاب:

– لو كانت أحكام الدين تسمح بذلك لما ترددنا. ولكن فضلنا

الوحيد في الحياة هو أننا حافظنا على أحكام الدين بدقة منذ اليوم الذي أنزلت فيه إلى الآن.

أما الحي الذي يسكنه السامريون في نابلس، فانه ليس نموذجاً من نماذج النظافة والرقي والتمدن. ويخيل لن يسير فيه أنه ينتقل من القرن العشرين إلى القرون الأولى للتاريخ، ويشعر بانقباض في الصدر لا يزيله غير خروجه من ذلك الحي وعودته إلى شوارع المدينة الواسعة وميادينها الفسيحة.

وفي ذلك الحي، داخل بيوت قديمة ضيقة تعيش الطائفة السامرية التي تعتقد اعتقاداً راسخاً أنها البقية الباقية من شعب الله الخاص، وأن الجنة وقف عليها دون سواها من الناس.

* * *

وقد دونت عن السامريين في مذكراتي حديثاً لثلاثة منهم، هذا ملخصه:

إنهم يعبدون الله ويؤمنون برسالة موسى عليه السلام، ويعتقدون إن الدين الحقيقي هو دينهم، وأن شريعة موسى قد شوهها اليهود ولكنها باقية عندهم نقية طاهرة كما كانت من قبل. فاليهود في عرفهم ضالون كالمسيحيين والمسلمين وهم من أجل ذلك لا يختلطون بأحد من أبناء الديانات والطوائف الأخرى ولا يتزوج السامري إلا سامرية. ولا تتزوج السامرية إلا سامريا، وهم يتنجسون من لمس الأشياء التي لمسها اليهود

والمسيحيون و المسلمون له.

وأخيراً أنهم يحتفظون على قولهم، بأقدم نسخة معروفة من التوراة وقد أكد لي أولئك الذين تحدثت إليهم إن تلك النسخة يرجع تاريخها إلى عودة بني إسرائيل من أرض الفراعنة إلى أرض الميعاد، وأن الذي كتبها بخط يده هو حفيد هارون أخي موسى عليه السلام. فهي أول توراة كتبت بعد عودة اليهود إلى مصر!

ولما سألت:

– ألا يمكن أن ترى تلك النسخة من التوراة، ولو عن بعد؟ فأجابني أحدهم:

– لو قلنا لك نعم، لكنا كاذبين فإن النسخة التي أحدثك عنها مخبوءة في مكان لا يعرفه غير الكاهن الأعظم، ونحن أنفسنا نجهله. أما النسخة التي تظهرها أمام السواح ونتقاضى أجراً على عرضها، فإنها نسخة طبق الأصل للأخرى، التي لا يمكن ولن يمكن في خال من الأحوال إن يلمسها أو أن يراها غير الكاهن الأعظم، فمن العبث إن تضيع وقتك وتعتقد خطأ فيما بعد أنك رأيت أقدم توراة في العالم، وأنت لم تر غير نسخة منها!

* * *

والسامريون يعيشون الآن في نابلس، في حماية العرب، في حين أن العرب في دولة إسرائيل يلاقون العذاب والاضطهاد والارهاق!.

صرخة الدم

هذه حادثة لعب فيها الحقد دوره. وأقدم بطلها على الانتقام النفسية بصورة بشعة. ولكنني أورد ها هنا كما وقعت، وللقارئ إن يستخلص منها العبرة التي يريد ..

في ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٨، وصل إلى القاهرة عائداً من ميادين القتال في فرنسا، شاب طويل القامة، أسمر اللون خدم ثلاث سنوات في صفوف الجيش الأسترالي الإنجليزي، وأصيب بخمسة جروح بليغة، نجا منها جميعها بأعجوبة.

وعزم هذا الشاب على أن يقيم في مصر، وأن يفتح محلاً تجارياً صغيراً بجانب القلعة، يبيع فيه أنواع الألبان واللحوم الأسترالية.

لكن المنية عاجلته، فمات في شهر يناير سنة ١٩١٩، ميكيا عليه من جميع من عرفوه وتقربوا إليه.

وكان اسمه...

ولكن، لندعه يقص علينا قصة حياته بنفسه، ويفضي إلينا بحوادث تلك الحياة، ويطعنا على اسمه الحقيقي.

زرته قبل وفاته بثمانية أيام، وانتزعت منه كلمة علمت منها أنه ليس من أبناء أستراليا وأن ليس هناك رابطة تربطه بهم، فعالجت الحديث حتى تمكنت من معرفة الحقيقة، وإليك ما قاله ذلك الجندي الباسل:

* * *

لست من أبناء أستراليا، ولا تربطني رابطة رحم بأحد من أبناء أوربا، بل أنا عربي صميم، ولدت في بطن الجزيرة من أبوين عربيين بدويين.

سل الأستراليين عن اسمي، يجبك الجميع: "اسمه اندور". أما إذا سألت العربان هناك في بادية الشام، فربما وجدت بينهم من يخبرك خبر الشيخ سالم، الذي قتل منذ ثلاثين سنة في طريقه إلى فلسطين، "تاركاً ولداً وحيداً يدعى "صابر"، أخذه بعض الرهبان إلى قرية "خبب" وكان حينذاك في الرابعة من سنيه.

أنا هو صابر!

قررت من دير الرهبان بعد سنتين، ولا أدري كيف تيسر لي أن اقطع المسافة الشاسعة بين تلك القرية والساحل مشياً على قدمي. لكن ما أعلمه هو أنني وصلت إلى مدينة صور، حيث دخلت في خدمة رجل انجليزي أخذني معه إلى بيروت ثم إلى مصر، ثم إلى وأستراليا.

وهناك شعرت بميل شديد إلى ركوب متن الأخطار والعودة إلى الحياة البدوية، فنفذت رغبتي وبرحت منزل مخدومي دون أن أخطره بذلك

وجعلت أطوف البلاد شرقاً وغرباً، وأمرح في براريها وغاباتها، مدة عشر سنوات كاملة!

وأخيراً أحببت...

نعم، أحببت فتاة من بنات تلك البلاد، وأحبتني "لوزيس" حباً شديداً، فتبادلنا الأقسام وتعاهدنا على الزواج.

لكنني ارتكبت خطأ كبيراً، فأطلعت خطيبتي على سر حياتي، ومنذ ذلك الحين داهمني الشقاء.

– عربي؟ وأنت عربي؟ أنت بدوي؟ يا للفظاعة!

بهذه الكلمات أجابت لورسس علي صراحتي.

أذن، فأنا محتقر في عينيها لأنني عربي!

أنني احمل اسماً إنجليزياً، وأدعى أرثور أندمور، وأحسن لغة القوم وهي ليست لغتي، وأعيش معيشتهم وهي تختلف عن معيشية أبناء عشيرتي. وآكل طعامهم وهو ليس طعام واحترم تقاليدهم وعاداتهم وهي ليست تقاليدي وعاداتي وأدين بدينهم وهو ليس دين آبائي وأجدادي.

ورغم ذلك كله الخلل في نظرهم عربياً ومحتقراً؟

تظن الفتاة نفسها ارفع مني مقاماً، وأشرف نفساً، وأعلى منزلة، وأسمى شعوراً، لا تسبب إلا لأنها ولدت من أب انجليزي وأم أسترالية.

لعنة الله على هذه البلاد وعلى الأنانية والكهرباء والغرور!

هجرت خطيبتي وهجرت معها بلادها، مقسماً إن انتقم لنفسي من أبناء جنسها، ومن أبناء الغرب بأسره ...

* * *

وكانت الحرب العلمي ...

دخلت في سلك الجيش الفرنسي في بادئ الأمر، واتخذت اسماً مستعاراً وحاربت تحت أمرة الجنرال غورو، ثم تركت الجيش الفرنسي وانضممت إلى الأستراليين، فحاربت أربع سنوات، أبليت فيها البلاء الحسن وقتلت عدداً لا يحصى من الأعداء.

ولكن من تظنني أعني بكلمة "أعداء" الأتراك؟ الألمان؟ كلا. أعني بهم جميع المحاربين، من فرنسيين وإنجليز واستراليين وألمانيين وغيرهم.

أما قلت لك أنني أقسمت إن انتقم لنفسي منهم جميعاً، فقد بررت بقسمي: قتلت منهم المئات. كنت في وسط المعارك أخوض غمارها كالأسد الثائر فأصوب بندقيتي أو مسدسي إلى من هم حوالي، أياً كانوا،

فأرديهم واحداً واحداً، تشفيا وانتقاماً، وقد أصبت بنوع من الجنون الهائج: جعلني اقرب إلى الحيوان المفترس مني إلى الإنسان العاقل!

هذا ما فعلت يا صديقي مدة أربع سنوات كاملة. سفكت دماءهم انتقاماً لنفسي: بسبب تلك الكلمات التي صفعتني بها خطيبتي لوريس، هناك، في أستراليا، يوم كنت ابنها نجواي وأطلعها على مر حياتي.

ولو اكتشف أمري لا عدمت بلا شك لكنهم لم يعلموا شيئاً، بل جاهلين الحقيقة ولا يزالون على جهلهم.

أصبت بخمسة جروح خطيرة، لكنني شفيت منها جميعاً، لأن رغبتي في الانتقام لم تكن قد أخمدت بعد، فكنت أستمد من تلك الرغبة قوة ونشاطاً.

اخترقت رصاصة ألمانية صدغي، وظللت أربعة أشهر في حالة خطر شديد، لكن هواء "شاموني" حيث قضيت ثلك الأشهر الأربعة، أعاد إلى الصحة والعافية.

واخترقت رصاصة أخرى صدري، فنهضت من فراشي معافى بعد أن قضيت ثلاثة أشهر موناكو.

والآن، فأنني أموت مرتاح البال منشرحاً مسروراً فالانتقام في نظري فضيلة عظمى، وقد دفعني إليه الدم العربي الأصيل الجاري في عروقي!

رحمة الله عليك يا صابر! اوارثور، أو جان، كما شاءت روحك أن تدعي. وليغفر لك الرحمن الرحيم تلك الآثام التي اقترفتها بدافع الانتقام، لأن دم الآباء والأجداد قد صرخ في صدرك صرخته، فاستجبت للنداء!

الحمامتان اليمانيتان

هذه قصة غرام بين طائرين لا تقل روعة عن قصة غرام بين إنسان... وإنسانة!

كنت أقلب صفحات إحدى الجرائد فرأيت فيها صورة الرجل يحمل في فمه طبقاً صغيراً وقد وقف عصفور على حافة ذلك الطبق يتناول منه طعامه. وجاء في الجريدة التي رأيت فيها الصورة أن الرجل من الجنود الأمريكيين القدماء، وأنه عني بتربية ذلك العصفور عناية شديدة، وعندما مات مات العصفور على الأثر، لأنه كان قد اعتاد إن يتناول طعامه من الطبق الذي يحمله صاحبه بين أسنانه فامتنع عن الأكل ومات جوعاً أو بعبارة أخرى مات منتحراً!

فسألت طبيباً من أطبائنا المعروفين:

– أتعتقد يا دكتور إن الطيور قادرة على عمل مثل هذا يدل على إنها تشعر بالحزن والألم أو الفرح والحبور، أتعتقد إنها تحب وتخلص في حبها؟

فأجابني:

– نعم أعتقد ذاك.

– حينذاك تنفست الصعداء، وقلت:

– الحمد لله. فأنني ممن يؤمنون بحب الطيور.

لي صديق يماني يقضي أيام السنة في القيام برحلات بين مصر ووطنه، لأنه يعمل في باخرة تمخر عباب البحر الأحمر من أول السنة إلى آخرها. وقد جاءني يوماً بحمامتين من الحمام اليماني الناصع البياض، فتقبلت الهدية شاكراً وقال لي:

– هذا الحمام يغني و يذكر الله، وإذا مرضت أحدى الحمامتين فإن الأخرى تمرض معها، وإذا ماتت أحداهما ماتت الأخرى.

وجعلت اعتني بتربية الحمامتين عناية خاصة أصبحت جزءا متمما الأعمال الصحافية اليومية فأضع لهما الماء والطعام بيدي، وأنظف قفصهما بيدي، وفي آخر النهار أطلب منهما العودة إلى القفص فتعودان إليه بلا عناد ولا تمرد.

وعند الفجر وفي أوقات معينة من النهار – وتشاء المصادفات أن تكون تلك الأوقات مواعيد الصلاة – يرتفع تغريد الحمامتين بأنغام. تشبه تماماً أنغام المصلين وهم يذكرون الله.

والحمامتان مغرمتان مدلهتان!

أنهما تتبادلان القبل وتستعملان بدل الفم منقاراً طويلاً.

والحمامتان تتغازلان بصورة تذكرك بالرغم منك بمغازلة الفتيان والفتيات في عصرنا هذا، عصر المغازلة. فهو يداعبها بجناحيه، وهي تفر من أمامه لكي يلحق بها ويطبق عليها الجناحين كأنه يريد بذلك إن يقول: "قفشتك، فلن تفلت مني! وعليك الآن إن تعطيني قبلة تعبت في الجري وراءك من أجلها".

فتمد "هي" منقارها ويمد "هو" منقاره ويرتشف كل منهما فم الآخر حلو الرضاب.

والحمامتان أذن عاشقتان.

وقد وضعت "هي" بيضة واحدة احتضنتها كما هي عادة الطيور لكي تفقس وتتفجر عن حمامة صغيرة بيضاء كأمها.

أتعلمون ماذا كان يصنع "هو" في أثناء ذلك؟

أنه كان يحمل الطعام بمنقاره ويجيء به إلى زوجته لكي يوفر عليها مشقة النهوض والذهاب إلى الوعاء الذي وضع فيه الغذاء.

وكان يحمل إليها بمنقاره أيضًا وهو رافع رأسه إلى فوق حتى إذا ما وصل إليها أفرغ الماء في فمها وعاد إلى الوعاء مرة ومرتين وثلاث مرات حسب الطلب.

وعندما كانت تخالف هذه القاعدة وتنهض من مكانها للتريض قليلاً، كان الزوج يحل محلها ويحتضن البيض كيلا تذهب حرارته! فسبحان الخلاق!

***

وحدث يوماً إن انحرفت صحة الزوجة وأدركت ذلك من امتناعها عن التغريد مع زوجها في الصباح وعند الظهر وقبل الغروب فخفت صوته شيئاً فشيئاً وامتنع في وقت من الأوقات هو أيضاً عن الهديل.

وارتسمت على وجه الاثنين أمارات مختلفة: بدت هي متعبة منهوكة، أو بعبارة أخرى مريضة وبدا مو كئيباً حزيناً لأن الزوجة المحبوبة مريضة!

– أغمضت عينيها فأغمض عينيه.

– وامتنعت عن الطعام فامتنع عنه.

وكان يذهب إلى وعاء الماء مرة كل ساعة أو ساعتين فينشر جناحيه ويضرب بهما الماء من ناحية الحمامة المريضة لكي يرشها به كما يرش الإنسان السليم أخاه المريض بماء الكولونيا!

وخيم السكون على القفص، وحل فيه المرض!

فاضطربت وقلقت وسألت الاختصاصيين في تربية الطيور عما يجب إن أصنع: فقالوا لي:

صبا في فم الحمامة المريضة قليلاً من الزيت كل يوم مرتين.

ففعلت، وما مرت أربعة أيام حتى عاد إليها النشاط شيئاً فشيئاً واستعادت صحتها وانتعشت ونفضت ريشها...

ورفعت صوتها بالتغريد وذكر الله!

ورد عليها صاحبنا الزوج الأمين بصوت يصم الآذان.

وشفى من المرض في اللحظة التي شفيت فيها زوجته منه

حينما ينتقم الحيوان

إياك إن تؤذي حيواناً، فقد ينتقم منك كما ينتقم عدوك الإنسان!

نقلت البرقيات مرة إن ذئبة مفترسة أغارت أربع مرات على قرية من أعمال "طرابزون" حيث افترست ثلاثة أطفال انتقاماً الثلاث من صغارها فتك بهم أمل القرية قبل ذلك بأيام.

وليست هذه الحادثة هي الأولى من نوعها، ولعلها لن تكون الأخيرة، فإن الحقد والانتقام، مما يشترك فيه الحيوان مع الإنسان وما أكثر الحوادث التي تدل على ذلك في كل زمان ومكان.

ففي سنة ١٩١٧، كنت في الجبهة العربية بمنطقة شرق الأردن، وحدث ذات يوم أن خرجت في رحلة قصيرة خارج المعسكر، ومعي زميلان من ضباط الجيش العربي هما، المرحوم فؤاد سليم بك – الذي استشهد في الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٦– والسيد أحمد التلمساني – المقيم في طنجة أو غيرها من مدن المغرب الآن.

وبينما كنا جالسين نعد القهوة على عين ماء هناك، وقد ربطنا خيولنا على مقربة منا، إذ مر علينا أعرابي يقود جملين، ولاحظنا إن أحدهما يحرن بين خطوة وأخرى، ويكف عن مواصلة السير، رغم الضرب المبرح الذي كان ينهال عليه من عصا غليظة بيد صاحبه، فنصحنا الرجل بأن يترك

الجيلين يرتاحان لحظة ريثما يعود الجمل الجرن لحالته الطبيعية فأصغى إلينا، وجلس معنا، ثم نهض بعد نصف ساعة ليستأنف السير، فما كاد يبلغ الجمل الذي تلقى ضربات عصاه، حتى رأينا هذا بنقي بنفسه عليه، فيوقعه ثم يجثم على صدره، وما هي إلا لحظة حتى كان الرجل جثة هامدة مشوهة، وكان الجمل يجري بخطوات واسعة سريعة في الصحراء، والجمل الأخر يتبعه.

على إن الحيوان لا ينتقم لنفسه أو لصغاره فقط، بل يكون انتقامه أحياناً من أجل صاحبه.

ويذكر التاريخ حادثة فذة، بطلها كلب وقد انتقم لصاحبه من قاتله. وقد نظمت فيها القصائد وسجلها الرسامون بأبدع اللوحات.

وتتلخص الحادثة في أن الشريف الفرنسي "أوبري دي مونديديه" كان مسافراً مع صديقه ورفيقه "ريشارد دي ماكير" فوثب عليه الصديق وقتله في مكان غير مطروق، ثم مضى في سبيله آمناً من اكتشاف جريمته.

وأمر الملك شارل الخامس بالبحث عن القاتل، ولكن أحداً لم يهتد إليه.

على أن كلب القتيل، الذي شهد مصرعه، جعل يلاحق صديقة القاتل في كل مكان، ويعوى كلما رآه، ويثب عليه فلا يتخلص منه الرجل

إلا بشق النفس، مما حمل المثقفين على التفكير في الأمر، ثم على توجيه التهمة إلى ريشارد دي ماكير، ولكنه أنكر واحتج صاخباً.

ولما كانت عقلية الناس في ذلك العهد تستسيغ نوعاً غريباً من المحاكمات، تلعب فيها الحيوانات دورها، إلى حد أنهم كانوا يحاكمون الحيوانات ذاتها ويحكمون عليها، فقد عرض القضاء على الملك أن تجري مبارزة بين المتهم "ريشارد دي ما كير" وبين كلب مونديديه، فإذا تغلب الرجل على الكلب، كان بريئاً من التهمة. وإذا تغلب الكلب عليه، كان هو القاتل!

وأجريت المبارزة في سنة ١٣٧١ في جزيرة لوفية أو في غابة بوندي وتغلب الكلب على الرجل، فألقاه على الأرض وأوشك إن يفترسه فما كان من "ريشارد دي ماكير" إلا إن طلب من المحكمين إن يوقفوا القتال، لأنه يريد إن يبوح بكل شيء!.

واعترف بأنه هو الذي قتل صديقه في الطريق، وأن الكلب كان الشاهد الوحيد على جريمته فحكم عليه بالإعدام!

* * *

وأهل البلدان الجبلية أو الباردة التي تكثر فيها الذئاب يتحاشون دائماً عند مطاردتها، قتل صغارها ما استطاعوا ذلك. فإن الذئب والذئبة ينتقمان لصغارهما انتقاماً فظيعاً.

وعندما يقتل الجبليون ذئباً أو صغاراً لذئب، فإنهم يستعدون في الليلة ذاتها أو في اليوم التالي للقاء الأنثى التي لا يمكن إن يفوتها الانتقام.

وفي لبنان مثل قديم يرددونه في بعض الأماكن التي تكثر فيها الذئاب وهو: "اليوم قتلت الصغير، بكرة يجيظك الكبير!".

يعبدون الشيطان .. يتقوا شره!

هذا ما يقوله اليزيديون. والشيطان عندهم مجسم في "الملك طاووس".

سمعت عن اليزيد بين غير مرة، وقرأت عنهم غرائب وعجائب ولكنني ما كنت أصدق أن ما قيل وكتب عنهم صحيح، وبقيت أعتقد إن الكتاب الأوربيين يطلقون لمخيلاتهم العنان كعادتهم ويصورون لنا الأوهام في شكل حقائق. إلى أن شاءت الأحوال إن أتحقق بنفسي صدق ما قرأت وما سمعت. فأمنت بأن اليزيديين يعبدون الشيطان!

واحتفظت بالمعلومات التي دونتها في مذكراتي عن أولئك اليزيديين، في أثناء رحلة قمت بها إلى العراق بعد انتهاء الحرب العظمى. وإذا بالفرصة تسنح لي الآن لنشر تلك المعلومات عن طائفة لاشك في إن كثيرين من القراء لا يعرفون عنها شيئاً.

طالعت في صحف العراق مرة إن الطائفة اليزيدية أنابت عنها "يونس أفندي العباوي" من أهالي الموصل. وإليك وثيقة التوكيل التي سلمت إليه:

"نحن رؤساء عشائر اليزيدية لقضاء سنجار والشيخان بما فينا سعيد بن أمير عموم ملة اليزيديين، الموقعين على الوثائق التي بيد يونس البادي لقد اتفقنا بالإجماع على قبول رياسة يونس أحمد العباوي وزعامته علينا

وعلى أفراد قبائلنا زعامة مطلقة بدون قيد أو شرط وقد أودعناه ثقتنا واعتمادنا وفوضناه جميع أمورنا وله الحق إن ينوب عنا وعن أفراد قبائلنا الذين وقعوا له بعريضة أخرى ويتكلم بلساننا في جميع القضايا العامة والخاصة. ومن واجبنا جميعاً أن لا نعصى له أمراً ولا تخالف له رأياً بصفته زعيمنا الأكبر وأن نسير وراءه لكل ما يقتادنا إليه بدون مناقشة أو اعتراض وقد أقسمنا بالله وبشرف الديانة اليزيدية وقدسية الوطن على ذلك وألينا إن نكون طوع أمره بمجرد رغبتنا واختيارنا، نظراً لما هو من الموقع – الممتاز والمكانة الخاصة بين عشائرنا وأن كل من سولت له نفسه الانشقاق وعدم الطاعة على ما هو محور أعلاه فيكون قد حنث بقسمه وخان ضميره ودينه ووطنه وأصبح مستحقاً لغضب الله والدين وبراءتهما منه وبالختام تعامد الله على ذلك".

ميرالشيخان

رئيس عموم طائفة اليزيدية

سعيد بن علي بك

ويرى القارئ من هذه الوثيقة إن الموقعين عليها يقولون "الديانة اليزيدية" أي أنهم يعدون أنفسهم طائفة قائمة بذاتها من ناحية الدين، فلا يعتبرون مسلمين كما يعتقد البعض، ولا يمكن إن يعتبروا منهم لأنهم لا يدينون بالإسلام بوجه من الوجوه فاليزيديون يعبدون الشيطان. وهم لا يعبدونه من دون الله عز وجل اعتقاداً منهم بألوهيته. كلا. بل أنهم يعلمون إن الشيطان هو.. الشيطان! ولكنه في نظرهم قادر على إلحاق الأذى بالناس لأنه شرير بفطرته. أما الله فانه طيب لا يؤذى ولا يضر أحداً. فإذا امتنع الناس عن عبادة الله، فإنه يغفر لهم لأنه غفور رحيم، أما إبليس فانه ينزل بهم نقمته إذا لعنوه كما يفعل المسلمون والمسيحيون وغيرهم! فاليزيديون يعبدون الشيطان إذن لكي يتقوا شراً ثم هم يعتقدون إن الله بعيد جداً عن العالم، ولا يهمه أمر الناس المنتشرين على سطح هذه الأرض. ولكي يبرهن اليزيديون على إن عبادتهم للشيطان لا تغضب الله بل ترضيه، فإنهم يقولون إن الله في شغل شاغل الآن عن هذا العالم وأنه ترك السلطان التام فيه لعزرائيل "طاووس الملائكة" أو "الملك طاووس" كما يسميه اليزيديون. فالملك طاووس هو الذي يسيطر الآن على العالم كما يريد وحسب هواه، لمدة عشرة آلاف سنة انقضت منها إلى الآن نحو

ثلاثة آلاف. فسيد العالم الحقيقي هو إذن الملك طاووس "أو عزرائيل" أو بعبارة أخرى الشيطان، الذي يجب على الناس إن يعبدوه إلى إن تنتقضي العشرة آلاف سنة كاملة، فيعود العالم إلى عبادة الله، بعد إن يعود عزرائيل نفسه إلى السماء، وقد ﷺ!

* * *

أما مؤسس اليزيدية فهو الشيخ عدي بن مسافر، الذي ولد في مدينة بعلبك في الجيل الخامس للهجرة. وقد نزل عليه الوحي –كما يعتقد اليزيديون – وهو يقوم برحلة إلى إيران! فعاد إلى الموصل ونادى بمذهبه الجديد، فالتف حوله المريدون والأنصار، وما لبث الشيخ عدي صار زعيماً لطائفة تضم الآلاف من الناس. وقد أراد الله – أو أراد إبليس – إن يذهب ذلك الرجل شهيد مذهبه، فان اليزيديين يقولون أنه سافر ذات مرة إلى أحد الأقطار البعيدة، فنزل الملك طاووس على الأرض واتخذ صورة الشيخ عدي، وجلس مكانه وجعل يدير شئون الطائفة بمعرفته، حتى إذا ما رجع عدي إلى بلدته، ظنه اليزيديون دجالاً أثيماً فقتلوه شر قتلة! حينذاك أظهر لهم الملك طاووس الحقيقة، وقال أن مؤسس اليزيدية قد صعد إلى السماء حيث جلس عن يمين الله تعالى، في انتظار اليوم الذي يعود فيه الملك طاووس إلى السماء ويجلس بين الاثنين!

* * *

ويبلغ عدد اليزيديين نحو ثلاثة آلاف نسمة في العراق وإيران، وخصوصاً في لواء الموصل. وهذا العدد ينقص رويداً رويداً.

وقد يجيء يوم قريب تنقرض فيه هذه الطائفة، لأن اليزيديين يحافظون على تقاليد قاسية من حيث عدم الزواج بغير اليزيديات وهم على الرغم من قلة عددهم نحسب لهم حساب في العراق نظراً إلى تعلقهم بزعمائهم وإخلاصهم لهم واستعدادهم في كل ظرف للتضحية بإشارة واحدة من أولئك الزعماء. والوثيقة المنشورة هنا تدل على مبلغ اندفاعهم في الإخلاص والمحافظة على الوعود والعهود.

* * *

عرفت في العراق واحداً من أولئك اليزيديين، وهو ذو مكانة بين أبناء قومه وقد دار يوماً بينه وبيني هذا الحديث:

– ألا تعبدون الله مطلقاً؟

– أجل. نعبده، ولكن عبادتنا تختلف عن عبادة المسلمين والمسيحيين – فإنكم تصلون إلى الله وتضرعون. أما نحن فإننا نكتفي بشكره على ما صنع: على خلق الأرض والناس من العدم. ولكننا لا نتضرع إليه ولا تطلب منه شيئاً.

– والشيطان؟.

– أما الشيطان فإننا نعبده عبادة تشبه عبادتكم أنتم لله! فهو قدير على كل شيء ونحن نتضرع إليه ونتوسل وتقدم القرابين ونرفع الصلوات، خوفاً من إن يبطش بنا ويلحق الأذى والضرر بأولادنا وأموالنا، فنحن كما ترى نشكر الله ونخشى الشيطان!

والرئيس اليزيديين الأعلى اليوم – أو ميرشيخان كما يلقبونه سلطة روحية وزمنية لأحد لها على جميع أبناء الطائفة كباراً وصغاراً رجالاً ونساء. فهو من الناحية الدينية رئيس مطلق التصرف مقامه أعلى من مقام البابا أو الخليفة. وهو أيضاً من الناحية الزمنية زعيم لا مرد لإرادته. يتصرف بشئون العباد كما يريد دون أن يكون لأحد من اليزيديين الحق في أن يعترض إرادته في شيء.

* * *

ولليزيديين صلاة خاصة يتلو نهائي أوقات معينة ويتضرعون فيها للملك طاووس بأن يدفع الشر عنهم، ويلحقهم بالشيخ عدي الذي سيأتي في يوم محدد ويأخذهم جميعاً إلى السماء بعد إن يضع كلاً منهم في قفة يحملها على رأسه!

وهم يحجون كل سنة إلى قبر الشيخ عدي بن مسافر الذي يعدونه قبلتهم ومزارهم، ويعدون الأرض التي يقوم عليها القبر أرضاً مقدسة، إذا ركعوا عليها وطلبوا من الملك طاووس طلباً فإنه نجيبهم إليه بلا أبطاء وإلى

القارئ نص احدي صلواتهم المعروفة في الطرق، والتي استطاع أحد الأدباء إن تحصل عليها من كتبهم القديمة:

"أمين أمين: تبارك الدين الأولين الابنين الخادمين، يا الله يا دايم، يا غفور يا موجود، يا فتاح، يا رزاق، يا مدبر الكون يا سائر، يا أمدين، يا شمس الدين، يا قمر الدين؛ يا سجادين: يا عزرائيل، يا جبرائيل، يا سمنسائيل، يا ميكائيل، يا دردائيل، يا أسرافيل، يا ربي أنت تبارك الدين، يا ربي على شأنك، على سلطانك، على عظمتك، ادعي واسجد، مالنا غيرك. يا قايم بن قوم ترحم ترحمني. أنت كريمي. أنت دايمي. أنت موجود. أنت معبود. أنت خداي. نوري نور الله. دردم مندم توخد اني بيسوجي. كي كرناه. حايدي تعبيبك. روحي. ملك ملك. جهامي خالق!".

* * *

ولا يتزوج يزيدي بغير يزيدية ولا تتزوج يزبدية بغير بزبدي. وتعدد النساء مباح عندهم. ولكن الزواج أشبه بعقد بيع وشراء فالزوجة تصبح ملكاً لزوجها يتصرف بها كما يشاء. وعندهم الطلاق أيضاً ولكن في ظروف معينة.

واليزيديون أميون، ليس بينهم غير عدد قليل جداً من الزعماء والكهنة، يحسنون القراءة والكتابة.

وهناك عادات وتقاليد ومعتقدات أخرى، منها أن اليهود والمسيحيين والمسلمين، في نظر اليزيدية أقوام نجسون لأنهم من سلالة "آدم وحواء بعد الزواج" أما اليزيديون فإنهم من "سلالة آدم وحواء قبل الزواج" عندما كان آدم جامعاً في جسمه جرثومة الحياة كلها أي الذكر والأنثى معاً!

* * *

هذا ما دونته في مذكراتي عن اليزيديين عبدة الشيطان، وحدث مرة إن مر بمصر السيد أحمد الغزالي، الجزائري المولد، والذي قضى حياته متنقلاً في بلدان الشرق، وله رسائل عديدة عن رحلاته تلك. فدارت بيننا أحاديث عن بعض إلا قوام النازلين في مختلف أنحاء هذا الشرق. ونشرت للسيد أحمد الغزالي الحديث الآتي من اليزيديين في الصحف المصرية:

قال محدثي:

"لقد زرت قبيلة اليريديين سنة **١٩١٣** قبل الحرب الكبرى وهم يعبدون الشيطان حقيقة .. فان القوم يعتقدون بوجود الله وبخلود النفس، لكنهم لا يعبدون الله بل يعبدون الشيطان. ذلك لأنهم يقولون في أنفسهم: "أن لله موجود وهو رحيم شفوق. فإذا عبدناه أو لم نعبده، فإن ذلك لا يغير من جوهره وشيئاً سيظل رحيماً شفوقا أياً كان موقفنا إزاءه: أما الشيطان، فبالعكس أنه شرير يضمر لنا السوء. فإذا لم نعبده وجه قواه جميعاً لمحاربتنا والإساءة إلينا وإلحاق الضرر بنا. أما إذا عدناه و تضرعنا

إليه، يشفق علينا ويرضى ويعدل عن محاربتنا ومعاكسانا" لهذه الأسباب نراهم يعبدون الشيطان.

"ويرمزون إليه بطاووس ويسمونه "الملك طاووس" وكلمة الشيطان لا يجوز إن يلفظها أحداً أمامهم لأنهم يعدون ذلك ذنباً عليها يعاقب مرتكبه بالموت. فإذا أراد أحدهم إن يتكلم عن معبودهم الشيطان أطلق عليه اسم إبليس أو الملك طاووس كما شاء.

"وهم خليط من العرب والأكراد، ولهم لغة خاصة بهم هي أيضاً خليط من العربية والتركية والكردية والأرمنية. ويؤلف اليزيديون هناك كتلة واحدة تختلف تماماً عن القبائل الأخرى المجاورة، كأنهم شعب قائم بذاته".

– هل يعرفون شيئاً عن الأديان الأخرى؟

– البعض منهم يعرف القليل عن الدين الإسلامي. لكن لا علاقة لمعتقداتهم بهذا الدين ولا بغيره.

– هل عندهم محرمات؟

– أنهم يمتنعون عن أكل الخضر فلا يذوقون منها شيئاً، فالخضر على مختلف أنواعها تعد نظرهم من المحرمات التي لا يجوز للمؤمن بمعتقداتهم إن يتناولها وإلا عد كافراً أو خارجاً على الدين يستحق العقاب الصارم.

– وفي غير المأكل؟

– ممنوع عندهم لبس اللون الأزرق. وأنهم يقولون إن هذا اللون إنما يلبسه الناس للوقاية من شر إبليس، ولكن لما كان أليس معبود اليزيديين فلا داعي إلى لبس اللون الأزرق لطرده أو الوقاية منه. بل هم يفعلون عكس ذلك ولا يدخلون هذا اللون إلى بلادهم.

– وأية ألوان يفضلون؟

– الأحمر والأبيض والأصفر. فجميع ملابسهم من أحد هذه الألوان وبنوع خاص الأبيض الذي يفضلونه على غيره للوقاية من الحر.

– وهل يخضعون لحكومة؟

– أنهم يخضعون لرؤسائهم ويطيعونهم طاعة عمياء، وعندهم قوانين تشبه كثيراً قوانين العشائر في الجزيرة العربية. لكنهم بعيدون عن كل حكومة من متمدينة ولا أظن إن أحداً حاول إن يبسط عليهم سلطانه بعد الحرب لأنهم قوم لا يقبلون حياة غير الحياة الحرة المطلقة!

الكذبة الصالحة

مأساة في حرب، والحرب سلسلة متواصلة الحلقات من المآسي.

ليس الكذب دائماً نقيصة أو رذيلة، فهو في بعض الأحيان والأحوال فضيلة لا تنكر. بل كثيراً ما يكون ضرورة لازمة. وقد يقدم الإنسان على الكذب مسروراً مختاراً، أو حزيناً مكرهاً، لإنقاذ شخص أولاً دخال العزاء إلى نفسه، أو لأي غرض من الأعراض السامية...

والمرأة التي أقص عليك قصتها هنا، والتي أقدمت على الكذب في حالة معينة، لم تكن لئيمة دنيئة، بل كانت، شريفة نبيلة. ولم تكن الكذب التي أقدمت عليها مختارة ومرغمة في آن واحد، نقيصة تؤاخذ عليها، بل كانت فضيلة وتضحية!.

* * *

أن تاريخ الحرب العظمى، التي حطت بكابوسها المزعج على العالم من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨، سيظل غنياً بالحوادث المفجعة والوقائع المؤثرة التي يدمي لها الفؤاد وينقبض لهولها الصدر. وهذا ما يحدث دائماً ويتكرر عندما تفلت غرائز الإنسان الوحشية من عقالها، وتنطلق السليقة البهيمة من النفوس الإمارة بالسوء، وتعصف رياح الشر الدموية الهدمة بالعالم، فتتطاحن الأمم في ميادين القتال وتسيل الدماء الزكية في الجبال

والوهاد، فتروي أرضاً تحرثها الدبابات وتقلبها القنابل، ويجيء الإنسان بعد أن تهدأ ثورة نفسه فيتغذى من أثمار وبقول صبغت تربتها دماء الضحايا!.

وينسى كل جبل هول الحرب الأخيرة التي شهدها، عندما تهز الأرض حرب جديدة. حينذاك تنطبع في صفحات ذهنه ذكرى "حرب عظمى"، تفوق بفداحة مصائبها وعدد ضحاياها أختها السابقة.

تلك هي سنة الحياة بين الأمم، ومهما قيل حول الموائد الخضراء، وفي المؤتمرات المتوالية والمعاهدات المتبادلة، فإن حب الأذى متأصل في نفس المتوالية والمعاهدات المتبادلة، فإن حب الأذى متأصل في نفوس الأفراد والحيوان "الناطق" يقاتل ويجاهد كالحيوان "الأعجم" في سبيل الحياة وتنازع البقاء.

والقصة التي أسوقها إلى القارئ هنا قد دونت حوادثها في إحدى المذكرات الكبيرة العدد التي تركها للأحقاب المقبلة، أولئك الذين اشتركوا في المعامع الطاحنة، من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨. ولا تخلو صفحة من صحائف تلك المذكرات الحمراء، من حادثة مؤلمة أو واقعة مفجعة!

* * *

سقط الضابط الفرنسي "البير بونفوا" جريحاً في ساحة الوغى، وقد أصابته رصاصة اخترقت صدره ونفذت من ظهره.

واستمرت المعركة ثلاثة أيام كاملة، زهقت فيها الأرواح وسألت الدماء وتكدست أشلاء القتلى والجرحى.

وأسفرت في النهاية عن فوز الفرقة التي كان ألبير بونفوا جندياً من جنودها، فانهزم الأعداء تاركين القرية التي كانت محور النضال والقتال قاعاً صفصفاً، ليس فيها جدار قائم وقد كانت بالأمس آهلة بالسكان.

نقل ألبير إلى المستشفى وهو على آخر رمق من الحياة. ففحصه الطبيب، وهز رأسه يائساً، وجعل يعالجه لا أملاً في إنقاذ حياته لأن الجرح كان قاتلاً مميتاً، بل عملاً بواجب مهنته، وتخفيفاً لآلام الجريح وتلبية لداعي الإنسانية.

دخل الضابط المسكين في دور الهذيان. فمرت في مخيلته الضعيفة ذكرى أيام سعادته، تلك الأيام التي قضاها في قريته الصغيرة، هناك في جبال الألب بين أهله وذويه، وبجانب خطيبته "مارت" التي أحبها وكانت له وفية في الحب.

أيام حلوة لذيذة!

النهوض الباكر في الصباح قبل طلوع الشمس.. والذهاب إلى العمل ومراقبة الفلاحين في المزرعة الكبيرة، ثم تناول الطعام على ضفة الغدير الصافي، مع "مارت" والمزارعين البسطاء.

ويأتي بعد ذلك حديث النزهة في الغابة، والطواف في الوادي فالعودة بعد غروب الشمس إلى البيت، وقضاء السهرة مع الأهل والخلان.

ومداعبة الآمال!.. الآمال البعيدة الواسعة المعسولة. والابتسام للمستقبل القريب السعيد، أو الذي كان يخيل له انه سيكون سعيداً مفعماً بالهناء!

لكن الحرب قضت على تلك الآمال، وسدت في الوجوه أبواب ذلك المستقبل، وجعلت السعادة لمنشودة حلماً بعيد التحقيق.

ترك الأب أولاده والابن أبويه وافترق الزوج عن زوجته. وهجر العاشق عشيقته وارتدى كل منهم ثوب الجندية الخشن وقد أصبح عنوان الشرف ورمز الواجب. وحمل بندقيته أو تقلد سيفه، وأسرع إلى مكانه في صفوف المحاربين للقيام بذلك الواجب وتلبية نداء ذلك الشرف والدفاع عن الأسرة الصغرى – العائلة – والأسرة الكبرى الوطن!

مر كل ذلك في مخيلة ألبير الجريح، فزاده ألماً على ألم: وجعل المسكين يتلوى على فراشه ويئن أنيناً يقطع نياط القلوب والعرق يتصبب من جبينه.

نادى الطبيب الممرضة فاقتربت من الجريح، ومسحت حسنه بمنديلها، وتفرست فيه لحظة ثم جعلت ترتعش والتفتت إلى الطبيب قائلة:

– لقد عرفته! هو ألبيربونفوا... لقد أغراني منذ ربع سنوات فرزقت منه ولداً هو الآن في الثالثة من عمره. ووعدني بالزواج لكنه اخلف الوعد وحنث باليمين وتخلى عني، فطردني أهلي من البيت بعد إن فضح أمري وذاع سري. وهأنا الآن أهيم على وجهي شقية تعسة بسبب هذا الجبان الخائن، الذي تراه أمامك يا دكتور ملقي على فراش الموت!

سكتت الممرضة لحظة بعد سحت في خلالها دمعة نفرت من عينيها. ثم استطردت تقول:

– لقد أحب فتاة أخرى تدعى "مارت" وخطبها. لكنه دعى إلى حمل السلاح قبل أن يعقداله عليها ويتم زواجه بها.!

قالت هل واجهشت بالبكاء.

فجعل الطبيب يلاطفها وقال:

– لست الآن يا سيدتي غير ممرضة تطوعت لمواساة الجرحى وتخفيف آلامهم. فالواجب المقدس يقضي عليك بألا تنظري إلى المريض الذي تلقي به الأقدار بين يديك أيا كان، إلا كجندي لا تعرفينه، و فرد من أبناء هذا الوطن، سقط في حومة الوغى مدافعاً عنك وعن بلادك التي هي بلاده، وشر فك الذي هو شرفه وراحتك التي هي راحته!

فلزمت الممرضة الصمت ..

ثم نظرت إلى ألبير نظرة طويلة، وهاجت في صدرها الشجون، فتذكرت تلك الوعود التي كان يقطعها لها ويرددها كل يوم، وصعدت من صدرها زفرة مؤلمة، وجرى اسم الحبيب على لسانها فتمتمت بالرغم منها:

– ألبير..

– وضعت يدها على رأس الجريح، تداعب شعره، وتدلله كما تدلل المرضع الطفل الصغير.

سمع ألبير أسمه ينطلق من بين تينك الشفتين، وشعر يلمس الأنامل اللدنة، وهي تروح وتجيء على خده، فخيل إليه في هذيانه انه بجانب خطيبته "مارت" أو إنها تداعب شعره ووجهه كما كانت تفعل هناك في القرية الجبلية النائية، على ضفاف الغدير وفي وسط الغابة، في ظل الصفصاف والسنديان.

فتح عينيه قليلاً، لكنه لم ير شيئاً...

غشاوة الموت!

فقال المريض:

– الظلام حالك!

سمعته الممرضة يقول ذلك بصوت ضعيف خافت. فأجابته:

– نعم، نحن الآن في الليل وليس في هذه القاعة مصابيح!..

– هذا الصوت العذب.. هو صوتها!

– وخيل لألبير أنه عرفه، فقال:

- مارت!. عزيزتي مارت! حبيبتي ... خطيبتي المعبودة!

ومد يده باحثاً عن يدها..

وبسط أنامله طالباً أناملها.

فتراجعت المرأة. فأشار إليها الطبيب بأن تجيبه إلى رغبته، وتضع يدها في يده!

أخذ الضابط الجريح يد الممرضة بين يديه بحنو عظيم، وارتسمت على شفتيه ابتسامة الفرح والحبور، ورفع اليد المحبوبة المرتعشة إلى فمه، ووضع عليها قبلة حب وهيام، زادتها الحمى حرارة وقوة!

واضطربت المرأة. لكن الطبيب همس في أذنها:

– لم يبق لهذا المسكين المحتضر في دقائق معدودة... أن الحياة تفارقه شيئاً فشيئاً... دعيه يفعل. وليمت وهو في حلمه اللذيذ معتقداً أنه بجانب خطيبته. وأنها تتلقى أنفاسه الأخيرة.

فقالت الممرضة:

– لكنه جرح قلبي وهدم صرح حياتي وسبب شقائي وتعسي!

– عليك إن تقابلي إساءته بالرحمة وان تشفقي عليه في الساعة الرهيبة إن الله سيذكر لك هذا يوم الحساب!

فكبحت المرأة جماح عواطفها وقربت رأسها من رأس المريض ... ونادته باسمه:

– ألبير!..

– ثم نادته ثانية:

– ألبير!..

فقال الطبيب: و هذا لا يكفي!

فأدركت الممرضة غرضه، وقادت الضابط الذي أساء إليها وخانها في حبها:

حبيبي ألبير!.

مع المريض عينيه ثانية. وقال:

– مارت!.. أريد إن أراك... لكن عبثاً أحاول ذلك.. مارت... حبيبتي.. أين أنت؟

– أنا هنا.. بجانبك أيها الحبيب العزيز.. تجلد.. سوف تراني عندما يطلع النهار وتشرق الشمس.. هاك يدي!

أخذ ألبير يد الممرضة وضمها إلى صدره. ثم اكب عليها يقبلها والدموع تنهمر من عينيه وتسيل، فتبلل تلك اليد التي كثيراً ما قبلها مردداً عهود الإخلاص والوفاء وهى عهود خانها بهجره الفتاة المسكينة التي أسلمته نفسها...

اضطرب الطبيب وأثر فيه ذلك المنظر المؤلم. لكنه اقترب من المرأة مرة أخرى، وشجعها على المضي إلى النهاية في ذلك الواجب الإنساني وقال:

– أرجو إن تقبلي التضحية إلى النهاية!

– ولكنني أكذب عليه!

– الكذب فضيلة في مثل هذه الظروف!

– هذا كثير!

– أن الواجب يقضى عليك ليس فقط بان تضمدي جراح الجنود البواسل الذين يسقطون في الميدان بل أيضاً بأن تساعديهم على الموت بلا ألم ولا عذاب. إن الجراح النفسية تؤلم أحياناً يا سيدتي أكثر من الجراح التي يصاب بها الجسد وتسيل منها الدماء.

وعم المكان سكون عميق ..

ثم تململ الجريح وفتح عينيه للمرة الثالثة ونادي:

– مارت!

فأجابته الممرضة:

– ألبير!

– حبيبتي! .. هات شفتيك... هات شفتيك!.. قبليني للمرة الأخيرة... قبلة الوداع يا مارت!

فانتفضت المرأة وتراجعت مذعورة وقالت للطبيب:

– سأفعل كل ما تأمرني به يا سيدي... لكنني لا أستطيع إن أجيب هذا الرجل إلى رجائه جائه وان الصدق شفتي بشفتيه، بعد إن انبعثت منهما تلك الوعود الكاذبة!

فقال الطبيب:– يجب أن تفعلي ذلك!

– لقد خدعني، ولم يؤنبه ضميره، لكنني لا أستطيع إن أخدعه الآن وان أمن عليه بالقبلة التي يطلبها .. قبلة مارت .. عدوتي ... مارت خطيبته .. مارت التي حلت مكاني في قلبه وانتزعت مني حبه!

فأجابها الطبيب:

– يجب أن تفعلي ذلك!

– لا لا. لا استطيع!

– قلت لك أنه مالت! إن ما تفعلينه لا يعد خداعاً ولا غشاً كما تظنين. بل هو رحمة سوف يحسبها لك الله في الآخرة. لا سبيل إلى إدخال العزاء على نفس هذا المسكين إلا بالكذب!

– لم أكذب عليه من قبل!

– لتكن أذن كذبتك هذه الأولى والأخيرة!

قام في نفس المرأة المسكينة قتال عنيف تلاطمت فيه العواطف النارية المتضاربة وتصادمت، فتغلبت الشفقة على القسوة، وتغلب الغفران على الانتقام!

ومن ثم، تغلب الكذب على الصدق!

ومن يدري إن تكون جذوة لحب لم تخمد بهدفي قلب المرأة لعاشقة!

أحنت الممرضة رأسها على الجريح، وقربت شفتيها من شفته من شفتيه ...

فشعر المسكين بحرارة نفسها، وبحث عن الشفتين المحبوبتين ...

ونادته الممرضة:

– ألبير!

فخرج أسم الحية الأخرى من فمه كأنه حشرجة الموت:

– مارت!...

وتعانقا طويلاً!

ثم شعرت الممرضة بأن الحرارة تفارق في الجريح، وان روحه تنطلق من غلافها الجسدي مع تلك القبيلة الحارة!

القبلة الأخيرة القاتلة!

فرفعت الممرضة رأسها، وأبعدت وجه المريض عن وجهها فنظر العلب إليها وقال:

– قضي الأمر! رحمة الله عليه!

فركعت الممرضة بجانب السرير، وضمت يديها في خشوع وسكون وهدوء، وتلت على نفس الحبيب الخائن صلاة الأموات!

كانت تلك الكذبة الصالحة أول كذبة أقدمت عليها الممرضة "سوزان ...".

وكانت أيضاً الأخيرة!

فقد نذرت نفسها لله بعد إن خانها الحبيب وأودعها قبلته الأخيرة، فدخلت الدير ودفنت نفسها في ثوب الراهبات المتعبدات تاركة ابنها للطبيب الذي دون هذا الحادث في مذكراته".

الفهرس